إقبـــــال
فيلسوف التجديد الإسلامي

قراءة في فكر إقبال وفلسفته

قصائد لإقبال بالعربية تُنشر لأوّل مرّة

د.محمد حبش

العناوين

- محمد إقبال في سطور
- الترجمة والنظم

خطاب النهضة

- تمهيد
- إقبال والعرب ...
- في الحضارة الإسلامية
- في حضارة الهند
- في الحضارة الأوربيّة

خطاب التجديد

- في الإصلاح الديني
- الثورة على الكهنوت
- في الخلافة والديمقراطية
- في تطور الشريعة
- الاجتهاد سنّة كونية حتميّة
- مولد العقل الاستدلالي
- في إخاء الأديان
- في الدار الآخرة
- القدر
- نهاية النبوّة لا نهاية الإشراق
- في كرامة الإنسان
- لينين أمام الله

خطاب الروح

- معراج الروح
- حوارات مولانا جلال الدين الرومي

نقطة نظام

الأبيات الشعرية الواردة في هذا الكتاب من شعر إقبال، وقد كتب إقبال شعره بالأوردية والفارسية، ثم تمّت ترجمته إلى العربية عنهما.

وقد تولّى نظم شعر إقبال بعد الترجمة شعراء كثيرون، ولكنّنا اعتمدنا في هذا الكتاب على خمسة منهم.

ونظراً لكثرة الأبيات، وحتى يتعرّف القارئ على إسهام كل شاعر، فقد رمزت عقب كل قصيدة لكلّ شاعر بالرمز الآتي:

الصاوي شعلان *

زهير ظاظا **

محمد حبش ***

عبد الوهاب عزام ****

حسين مجيب المصري *****

تمهيد

لم يحصل أن نال شاعر في أمّة من الأمم ذلك المجد الذي وهبته باكستان للشاعر إقبال، فهو حكيمها وفيلسوفها وقدّيسها ومؤسّسها، وشاعرها وديوان أحلامها وآمالها وآلامها، وجوهرتها الخالدة التي تتقدّم بها إلى العالم.

يسكن فولتير في ضمير فرنسا وغوته في الثقافة الألمانية وثربانتوس في تراث الإسبان وطاغور في روح الهند والمتنبّي على لسان العرب وفردوسي في أحلام الفرس، ولكل أمّة رسول وشاعر.

وفي باكستان بات إقبال فيلسوف الأمة وملهمها، وصورته إلى اليوم تتقدّم صور الزعماء والقادة والمؤسّسين في كلّ مكان في الباكستان، ولا مبالغة مهما قلت في وصف تأثيره وحضوره في الثقافة الباكستانية.

وستتناول الدراسة فكر إقبال ورسالته من خلال ثلاثة فصول رئيسة:

- خطاب النهضة
- خطاب التجديد
- خطاب الروح

في خطاب النهضة، نصحب إقبالاً في روائعه التي كتبها لاستنهاض العقل المسلم، وبيان مكانته ورسالته في صراع الأمم، ونعيش في هذا المعنى بين رؤية الشاعر ورسالته العالمية، وبين الواقع الذي يعيشه المسلمون.

وينشغل إقبال، بشكل رئيس، بالمسلم الذي هو جوهر هذه المواجهة الحضارية، ولا يتحدث عن الغرب كمنتصر راشد؛ بل يتحدث عنه في قيامه ونهوضه باعتباره درساً

إنسانياً دقيقاً يجب أن لا يتحوّل إلى مشروع خيبة جديدة، ويطرح بثقة واقتدار مبادئ التواصل والتفاصل بين قيم الإسلام الروحية وبين قيم الغرب المادية.

وستتناوس هذه الدراسة الإشارة إلى موردين فكريين لفقه النهضة؛ الأوّل إقبال القادم من الشرق، والثاني مالك بن نبي، فقد بدا أن مالكاً بن نبي كان امتداداً مشرقياً لرؤية إقبال وفكره ومجده، وكانت رسالة الرجلين تتلخّص في الدعوة إلى جذوة الآباء وليس رمادهم، وفي اتفاقهم على دور النبي الخاتم في نقل البشرية من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.

«لقد صنعت إقبال الفيلسوف، ومالك بن نبي الفكر، ظروف تاريخية واحدة. استمدّ كلٌّ منهما فلسفته وفكره من مصادر واحدة، وروافد متماثلة تماماً. فكلٌّ منهما ابن بيئة إسلامية ومحيط ديني محافظ، ارتبط بالإسلام وفهمه عقيدةً وشريعةً، وكان حبّه لله ولرسوله كبير، لم تؤثّر فيه دعوات الإلحاد؛ بل كانت تلك تزيده تمسكاً بالإسلام، وحبّاً له، ودفاعاً عنه، وتزيده تخلّقاً بأخلاق الإسلام، لرفع التحدي والتصدي لدعاة التغريب من أبناء العالم الإسلامي ومن غيرهم. كما اطلع كلٌّ منهما على الفكر الإنساني بشكل عام، والفكر الإسلامي بشكل خاص، ونال عندهما الفكر الإسلامي القديم والحديث كلّ العناية، وكل الاهتمام بالمتابعة والدراسة والتقويم والمراجعة، كما نال الفكر الغربي القديم والحديث نفس العناية والاهتمام.

و كان للفكر الغربي والحضارة الغربية، بشكل عام، الأثر البارز في فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي؛ لأن الفكر الإصلاحي الحديث لدى المفكرين هو مجرد استجابة لفكر غربي، وحضارة غربية غزت العالم الإسلامي، فكانت أمام قيم دينية وتاريخية موروثة، حملها دعاة الإصلاح، وأصحاب التجديد، في واقع تميّز بوجود عالمين اثنين: عالم متخلّف مغزو غشّه ليل الاستعمار، فهو يعاني الجهل والفقر والبؤس والحرمان، والعالم الإسلامي جزء منه؛ وعالم متحضّر غازي، يعيش الحضارة والمدنية والرفاء المادي والتنظيم الاجتماعي، وهو العالم الأوروبي، فكان واقع المسلمين المتميّز بالتخلف والانحطاط من جهة، وواقع أوروبا المتميز بالتقدم والرقي العلمي والتكنولوجي

والاقتصادي من جهة أخرى، لهما الأثر البارز في تكوين فلسفة إقبال وفكر مالك بن نبي»[1].

وفي خطاب التجديد، الذي نعدّه جوهر هذه الدراسة، نقدم إقبالاً هنا خبيراً بصيراً بالداء الذي يعصف بالعالم الإسلامي، ونقرأ رسائله وصيحاته المتتابعة من أجل قيام المجتمع الإسلامي من سقوطه وتخلّفه، ومسؤولية العقل في بناء روح جديدة وثقافة جديدة تزاحم ما يعجّ به هذا العالم من فلسفة وفكر.

يتقدم إقبال بشجاعة وجرأة ليفكّك في بنية العقل المسلم كثيراً من المسلّمات التي ألقاها الاستبداد في دائرة التابو، ومنع من مناقشتها، ويقتحم منطق احتكار الحقيقة، ويطالب المسلم باكتشاف ما لدى الأمم من حكمة ونور، وينادي بالزمالة بين الديانات والفلسفات والحكمة، والتوقّف عن تكفير العالم، ومع أنه لا يملّ من الحديث عن المجد الإسلامي، ولكنه بدا حريصاً تماماً على مكان الأمّة التي يريد: أمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم، ودين بين الأديان وليس دين فوق الأديان، إنها دعوة للمساواة والكرامة وليس للنازية والغطرسة والاستعلاء.

ويبدو إقبال مدهشاً في موقفه من القدر، الذي بات يُدرس على أنه سادس أركان الإسلام، ومع أن إقبال لا يناقشه لاهوتياً، لكنه لا يترك شيئاً للاهوت!! بعد أن حطم كل تلك الأيقونات التي كانت ترسف على ضمير المسلم، وتحيله إلى شيء خاوٍ تعصف به رياح الأقدار، وتتصرف به الأمم الغالبة كما تتصرف بأشيائها، ويقدم في الوعي بالقدر سلسلة مواقف جريئة لا يمكن للعقل السلفي تقبّلها بأيّ سبيل، ولكنه لا ينفكّ عن ربط رؤيته لحرية الإنسان وكرامته بنصوص الوحي المبين، وجوهر القرآن الكريم في دعوته للحرية والكرامة، ويعجب إقبال كيف غابت هذه الحقائق عن العقل المسلم.

ولكن موقفه الأعجب يتركز حول مسألة ختم النبوة، ويتعجّب من ارتكاس فهم هذه المسألة لدى الفقهاء، وتحوّلها إلى إعلان وفاة العقل، والاستسلام للتأويل النصّي، والوقوف على ما وقف عليه السلف، في حين أنه يعدّ يوم ختم النبوة أعظم أيام العقل مجداً في تاريخ الإنسانية، ويعدّه بنصٍّ واضح يوم مولد العقل الاستدلالي.

---

[1] جبلالي، بو بكر، «نظرية الحضارة بين مالك بن نبي ومحمد إقبال»، نُشرت في منتدى ابن خلدون 2011/4/19 /http://miraatalwasat-2007.jeun.fr

والمدهش أن إقبال لا يرى أنّ موت الرسول الأعظم هو يوم ختم النبوة؛ بل مبعثه هو يوم ختم النبوة!! ويرى أن سلوكه الديمقراطي في التشريع والإدارة كان في الواقع إعلاناً وافياً بختم النبوّة، وتأكيداً لولادة العقل الاستدلالي.

وفيما يحاورك عن حججه وبراهينه في رسالة ختم النبوة ودلالتها العقلية والبرهانية، ينطلق من فوره ليشارك العارفين الذين استأنفوا التواصل مع السماء ولكن هذه المرة منبعَ إشراق ونور وليس شريعة وقوانين، فقد قرر إقبال أن الشريعة والقوانين باتت شأن العقل الاستدلالي، تنتجها الأمة في برلماناتها ومجالسها الشورية، وأن السماء هي مصدر إلهام وليست مصدر قانون، وأن الناس جميعاً شركاء في نفحاتها، وأنها شمس نور تشرق دون كلل في القلوب التائقة إلى ما فيها من نور وحياة.

ويصرّح إقبال مراراً بأنه خاض لجج الشكّ والحيرة، وأنه عانى ما عانى للوصول إلى شاطئ اليقين، ولكنّه يتمسّك برؤيته، التي نقلها عن الفيلسوف البريطاني وايتهد (Alfred North Whitehead)، بأن الكون ليس حقيقة قارّة؛ إنه جدل متلاطم، وهو العناء الذي يكابده كلّ باحث عن الحقيقة، وهو معنى خلده في شطرين من الإعجاز

لـيس يخفـى علـى القلنـدر فكـر[2] ساور النشـأ ظـاهراً أو خفيـاً
أنـا عنـدي بكـل حالـك خبـر *** فبهـذا الطريـق سـرت مليـا[3]

وفي هذا الفصل الخاص بفلسفة التجديد الديني عند إقبال سنعتمد، بشكل جوهري، كتاب إقبال (**تجديد التفكير الديني في الإسلام**)، وهو الكتاب الذي كتبه إقبال نثراً، وتُرجم نثراً إلى العربية عن الإنكليزية، ويتخذ كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) طابعاً فلسفياً عميقاً، ويمارس فيه إقبال الحفرَ في العقل المسلم للوقوف على جذورالمشكلة التي جعلت المسلمين أمّة متخلّفة عن ركب الأمم، ويبحث بعمق عن الجذور الفكرية والتأصيلية لمشكلة التخلف الإسلامي.

---

[2] القلندر رتبة صوفية من الزهد والتجرّد، يستعملها إقبال للتعبير عن العارف الحرّ السالك المجتهد في طريق الحقّ، وهي طريقة معروفة في الهند، كأن أتباعها لا يرتبطون بوطن، ولا أهل، ويديمون السفر والارتحال في الأرض، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم، في تعبير عن الحرية واتساع الفضاء الإلهي.

[3] ديوان ضرب الكليم، ترجمه وصاغه عبد الوهاب عزّام، وتجده في ديوان إقبال الأعمال الكاملة، دار ابن كثير، ج 2، ص 40.

وفي خطاب الروح نتناول إقبال في عالمه الروحي، وهو يرتشف مباشرةً في العالم الأعلى رحيق الروح وغامر الإشراق، وينضمّ إلى قافلة من زملائه الذين اقتحموا بأشواقهم وشكواهم وضراعاتهم عجائب العالم الأعلى وأسراره.

ولا يكتفي إقبال بالثناء على تجاربهم الروحية في السماء كما تجلّت في طور موسى ونفحات عيسى وغار حراء؛ بل يستأنف هذه المعارج مع الجنيد وأبي يزيد البسطامي وأبي العلاء المعري وابن عربي وجلال الدين الرومي، ولا يستثني الحلّاج ونيتشه ودانتي ولينين!! ويعدّ تجاربهم الروحية والعرفانية غنية وعميقة، ويبني على تلك التأمّلات أروع ما جادت به روحه من أشعار.

لا يطيق هؤلاء العارفون أن تغلق عن إشراقاتهم أبواب السماء، فيمضون بأنفسهم في ممارسة الوصال مع الغيب، والحديث إلى السماء، ثم يجمعون ما كان من إشراقهم وأذواقهم في قصائد خضراء معطرة بالندى يراقصها الريّ والامتلاء، فتجري في مسامع الناس بألحان الخلود.

ويصرّح إقبال بتفاصيل دقيقة عن معراجه الروحي الرهيب، وتأخذه نرجسية متمردة، فيعلن أن صياحه وشكواه قد أثارت صخباً وقلقاً في العالم الأعلى، وأن السماء باتت مشغولة بالردّ عن تساؤلاته وشكواه، ويشرح بالتفصيل مشهد الصخب الذي انفجر في العالم العلوي، والحيرة التي عصفت في الملأ الأعلى حول سبيل الردّ عن تساؤلاته الهادرة، وأن رضوان خازن الجنة هو من تولّى، في النهاية، حواره وتسجيل شكواه، وتعهّد بالإجابة عنها بعد أن يعرضها على محفل السماء.

ويختار إقبال معلمه التاريخي جلال الدين الرومي ليكون وصاله ونجواه وشكواه ورجع صداه، ويبدو مسلّماً، دون تحفّظ، لكل ما أثاره جلال الدين في رسالته القائمة على إخاء الأديان وكرامة الإنسان، ويسميه الأستاذ، وهو لقب إجلال لم يتوجه به إقبال إلى معلّم آخر غير جلال الدين.

وقد عرف جلال الدين الرومي في التاريخ الإسلامي بموقفه الواضح في إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وهو الامتداد الشرقي لحلقة من خمسة رجال بالغي التأثير في الفكر الإسلامي، وهم: ابن عربي وابن سبعين والسهروردي الشهيد وعبد القادر الجيلاني، وهم أبرز الرجال الذين صرّحوا في التاريخ الإسلامي، من دون مواربة، أن الإسلام رسالة مصدّقة للأديان، وأنها لا تتضمّن ضرورة الحرب على الأديان، أو التسخيف بها،

وأن رسالتها في الأديان هي التصديق لما بين يديها في المشتركات، واحترام الرسل الذين قصّهم الله علينا، والذين لم يقصصهم علينا، وإن من أمّة إلا خلا فيها نذير.

ولا شكّ في أن عكوفه في محراب جلال الدين موصول بالأثر البالغ الذي حقّقه جلال الدين في إطار الإخاء الإنساني، ومن جهة أخرى فقد كانت اللغة الفارسية، التي كتب بها جلال الدين، من دون شكّ، هي السبب الأبرز في تأثر إقبال بفكره، واتخاذه مولانا جلال الدين أستاذاً ومرشداً روحياً؛ حيث أحبّ إقبال الفارسية، ونظم بها عدداً من قصائده.

وفي حواراته الروحية هذه يقدّم للمسلم كثيراً من الحكمة الغائبة التي علمها جلال الدين وأصبحت رائزة رحمة وحب، ونور يقبسه السالكون إلى الله على هدى وبصيرة.

وقد اختتمنا الدراسة بحوار طويل بين إقبال وجلال الدين الرومي آثرنا تركه كما هو ببساطته وعمقه، وهو يشرح علاقة أستاذ بتلميذه الذي يتعقّب خطاه بعد رحيله بستمئة عام.

محمد إقبال... في سطور

ولد محمد إقبال عام (1877) في سيالكوت شمال الهند، وهي تقع اليوم في أرض باكستان في إقليم البنجاب، لأسرة عريقة من أصول هندوسية اعتنقت الإسلام قبل عدة قرون، وحافظت على منزلتها الاجتماعية والاقتصادية، فنشأ إقبال في عائلة متديّنة تتوافر لها فرص الحياة الكريمة.

دفعه والده السيد شيخ نور محمد إلى دراسة الشريعة، ثمّ إلى الحقل الحقوقي، وهو ما اختاره إقبال في مسيرته الأكاديمية.

وقد ظهر نبوغه الشعري مبكراً، وكان أستاذه مير حسن يتولّى تشجيعه، والإشراف عليه فيما يكتبه من أشعار، وكان يرسل أشعاره إلى ميرزا داغ دهلوي أبرز شعراء الأوردية الأوردية آنذ، وبعد فترة قليلة أعلن الشاعر ميرزا داغ أن إقبال بات في غنى تامّ عن تنقيح شعره، الذي بات يتدفّق حكمةً وأدباً وموسيقا.

وبعد أن أنجز دراساته الأوّلية في سيالكوت، ثم في جامعة البنجاب التي حصل منها على الماجستير عام 1899 وبعد ذلك التحق إقبال بجامعة كامبردج في بريطانيا حيث حصل على درجة علميَّة مرموقة في الفلسفة وعلم الاقتصاد، ثم رحل إلى جامعة ميونيخ في ألمانيا؛ حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة.

وأتقن إقبال الإنكليزية والفارسية إلى جانب لغته الأوردية، ولكنّه أظهر اهتماماً كبيراً باللغة العربية، ووجد فرصة لتدريس اللغة العربية للمستشرقين في لندن، وقد ساعدته هذه الفرصة على الاطلاع بعمق على أعمال الفلاسفة الكبار في الإسلام ابن سينا والفارابي وابن رشد، وابن عربي وجلال الدين الرومي، كما توافرت له الفرصة للتواصل المباشر مع الثقافة الأوربيّة، والاطلاع على أعمال هيغل وكانط ونيتشه وشوبنهاور من أساطين العلم والفلسفة.

واتصل إقبال مباشرة بالسير توماس أرنولد (Thomas Walker Arnold) أبرز المستشرقين المشتغلين بالحضارة العربية والإسلامية وكان أستاذ الفلسفة الحديثة في جامعة لندن، كما أنه عمل أيضاً في جامعة لاهور، ويبدو أنه تعرّف على إقبال في لاهور، ومن الوارد أنه مهّد له وساعده لإتمام التحصيل في جامعة لندن، وقد تولّى السير توماس أرنولد الإشراف على أبحاث إقبال، وحفظ له إقبال دوره الرائد في تنظيم ثقافته، وإطلاعه على كنوز الحضارة الإسلامية.

عُيّن إقبال عميداً في كلية الدراسات الشرقية في جامعة البنجاب، كما صنّف كتاباً في «علم الاقتصاد». ولم يصرفه التدريس عن الشعر؛ بل ظلّ يشارك في محافل الأدب وجلسات الشعر، وكان يشارك في حفلات الشعر الارتجالي التي كانت تُسمّى المشاعرة، وكان دائماً نجم هذا اللون من اللقاءات.

برز إقبال مفكراً على مستوى الهند، وكانت رسالته واضحة وجريئة، وهي التحرّر والخلاص من الاستعمار البريطاني، وبناء وطن حرّ لكلّ أبنائه قائم على ثوابت الروح والقيم التي عرفها تاريخ الهند عبر الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، وكان لا يخفي رغبته برؤية المسلمين في وطن موحّد يحملون آمالهم وأمانيهم ورجاءهم.

وكان إقبال يعيش همّ الأمّة الإسلامية في الهند، ويناضل من أجل حقوقها وحرياتها، وكان يسمّي الهند الجديدة باكستان، وهو من منح هذا اللقب للوطن الجديد الذي سينشأ بعد موته.

ومنذ بداية الثلاثينيات تواصل القائد الباكستاني المسلم محمد علي جناح مع إقبال، واتخذه معلّماً وملهماً للشعب الهندي المسلم، مع أن جناح عمل طويلاً لوحدة الهند، وقيام فيدرالية سياسية توفر الحقوق الإسلامية الأساسية للمسلمين في شمال القارة الهندية، قبل أن يتحوّل حزبه «عصبة عموم مسلمي الهند» للمطالبة بالاستقلال التام لباكستان بدءاً من عام (1940)؛ أي بعد وفاة إقبال بسنتين.

أما صلة إقبال بالعرب، فهي حقيقة تنبض بها حروف قصائده، وكان عبد الوهاب عزّام أوّل من عرّف العرب بإقبال؛ حيث ترجم معظم كتبه إلى اللغة العربية، كما ساهم أبو الحسن الندوي بالتعريف بهذا الشاعر الكبير وتقديمه شاعراً إسلامياً رائداً.

ويزيد ما نشر إقبال باللغة العربية عن ثلاثين كتاباً مستقلاً ومئات المقالات والدراسات.

وقد أصبحت كلمات إقبال أكثر ما يردّده الخطباء والدعاة والفقهاء في البلاد العربية، وقد أثارت حماستها ولهيبها شباب الصحوة الإسلامية في مختلف البلاد العربية.

كما أن قصيدته الشهيرة حديث الروح، التي غنتها أم كلثوم، صارت أكثر كلمات المناجاة والحوار الروحي اشتهاراً وانتشاراً.

وقد ترك محمد إقبال تراثاً أدبياً وفلسفياً احتلّ به مكانةً مرموقةً بين كبار الشعراء والفلاسفة في النصف الأوّل من القرن العشرين.

ولإقبال تسعة دواوين، وستجدها مرتّبة في جدول خاصّ بعد صفحات قليلة.

ولا شكّ في أنّ كتابه (**تجديد التفكير الديني في الإسلام**) يعدّ أبرز كتاب شرَح رسالة إقبال وموقفه الفكري والفلسفي، ويعدُّ الكتاب توثيقاً كاملاً لمنهج إقبال في تجديد الفكر الديني[4].

وفي السنوات الأخيرة من حياته حقّق إقبال شهرةً عالميةً واسعةً، وطاف في عدد من البلدان الأوربيّة والآسيويّة، وكان من الطبيعي أن يلتقيه زعماء الدول حين زيارته، نظراً لمكانته الدولية، وفي أفغانستان التقاه الملك نادر شاه بعد استقبال شعبي حاشد في الشوارع الأفغانية، وفي إيطاليا التقاه موسوليني بعد أن سمع عن مكانته الكبيرة.

---

[4] كتب إقبال كتابه هذا بالانكليزية (1930) تحت عنوان (The Reconstruction of Religious Thought in Islam)، وصدرت ترجمته العربية الأولى على يد عباس محمود، ومراجعة الشيخ عبد العزيز المراغي، وطبعت عبر لجنة الأبحاث والنشر في القاهرة (1968)، ثم طبعت في دار الهداية (2000)، كما صدرت ترجمة أخرى للكتاب على يد محمد يوسف عدس، وطبعت في مكتبة الإسكندرية (2010)، كما طبعتها دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني فيما بعد.

وفي منتصف الثلاثينيات بدأ إقبال يعاني مشاكل صحية متفاقمة انتهت بوفاته في (21 نيسان/ أبريل 1938).

وأعلن يوم وفاة إقبال حداداً رسمياً في شمال الهند، وأُغلقت المحال، وتوقفت المصالح التجارية، وحُمل في جنازة مهيبة إلى ضريحه في لاهور.

ويوم رحيله كتب روبندنات طاغور (Rabindranath Tagore) أشهر شعراء الهند: لقد خلفت وفاة إقبال في أدبنا فراغاً أشبه بالجرح المثخن الذي لا يندمل إلا بعد أمد طويل، إن موت شاعر عالمي كإقبال مصيبة تفوق احتمال الهند!![5].

وبعد قيام باكستان، تمّ الإعلان عن إقبال مؤسّساً ومرشداً لقيام باكستان، وأصبح ضريحه في لاهور تراثاً وطنياً ترعاه الدولة، وتخصّص له الحرس اللائق وفق تقاليد وطنية معروفة ومحبّبة، كما أسّست حكومة باكستان مركزاً كبيراً قرب ضريحه باسم ديوان إقبال، يشتمل على عدد من المؤسسات العلمية، ومكتبة نفيسة، وقاعات محاضرات كلها مخصصة لجمع تراث إقبال وشعره وفنّه وأدبه.

كما خصّصت الجامعة الإسلامية في إسلام آباد مركزاً أكاديمياً كبيراً باسم معهد إقبال العالمي للبحوث والحوار، يتولّى التعريف بإسهاماته وعمله وفلسفته.

وعلى امتداد باكستان تنتشر مراكز ومدارس ومراكز بحث تعمل تحت اسم إقبال بوصفه معلماً وملهماً ومرشداً للبحث العلمي والنهضوي.

ولا أنسى دور العلامة الجليل عبد الجبار شاكر، الذي كرّس حياته لتراث إقبال، وكانت مكتبته النفيسة في بيته في لاهور تضمّ أهم ما كُتب عن إقبال من نسخ أصلية، وما كتبه بخطّ يده، وقد زرته مراراً في مكتبته النفيسة في لاهور، وآمل أن يكون أبناؤه بعد رحيله قد حافظوا على هذا التراث المجيد، ووفروه للبحث العلمي في ديوان إقبال في لاهور، وفي معهد إقبال العالمي للدراسات والبحوث في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد.

---

[5] عزام، عبد الوهاب، محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره، ص 26، طبع الدار العلمية، 1972.

وقد لخّص الأستاذ عبد الوهاب عزّام حياة إقبال يوم رحيله بقوله:

«مات رجل كان على هذه الأرض عالماً روحياً، يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى، ويسنّ لهم في الحياة سنّة جديدة، وسكن فكر جوّال جمع ما شاءت له قدرته من معارف الشرق والغرب. ثم نقدها غير مستأثر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة، ولا مستكين لما يروى من أقوال العظماء، وقرّت نفس حرّة لا يحدها زمان ولا مكان، ولا يأسرها ماض ولا حاضر، فهي طليقة بين الأزل والأبد، خفّاقة في ملكوت الله الذي لا يُحدّ»[6].

أمّا الشاعر الأزهري الصاوي شعلان، الذي ترجم له أهم القصائد من ديوانه (**رسالة المشرق**)، فكان ضرير البصر، ولكنه رحل إليه في لاهور، وقام على قبره، وقال:

عجبتُ لنجمٍ مشرق وهوغائب ومحتجب ما زال يبدو ويظهر
ولم أرَ نجماً قطّ بعد احتجابه يزيد ضياء في العيون ويبهر
سل الجوهر المكنون في باطن الثرى * متى عاد للأصداف قبلك جوهر؟ [7]

[6] المصدر نفسه، ص 241.
[7] رشيد، صلاح حسن، مقال في مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، العدد 580، 2014.

الترجمة والنظم:

سنعتمد في هذه الدراسة على الترجمات الكريمة التي قدمها للمكتبة العربية كلٌّ من الأساتذة الأجلاء عبد الوهاب عزّام، وهو أوّل من عرّف العالم العربي بسحر إقبال وروعة شعره، ثم الترجمات التي قدّمها محمد حسن الأعظمي وعبد المعين الملوحي، وكلاهما قدّم طرفاً بالغ الأهمية من شعر إقبال إلى المكتبة العربية، وارتبط اسم الأعظمي بشكوى وجواب شكوى، كما ارتبط اسم الملوحي بجناح جبريل.

ولا بدّ من الإشارة إلى مترجمين كريمين ارتبط اسمهما بديوان إقبال (**أرمغان حجاز**)؛ أي هدية الحجاز، وهما الأستاذ واعظ غلام أوغلي، والدكتور حسين مجيب المصري الذي ترجمه ونظمه شعراً[8]، وقد قام الشاعر زهير ظاظا بنظم الديوان اعتماداً على نظم واعظ غلام أوغلي، ونشر طرفاً منه على صفحات الوراق، وقد اطلعت عليها على الموقع الإلكتروني، ولكن لم أعثر له على نسخة مطبوعة لها[9].

ولا شكّ في أنّ هذه الترجمات لم يكن ليُكتب لها هذا القيام والنهوض والتأثير إلا بالجهد الكبير الذي بذله شعراء العربية الماجدون: الصاوي شعلان الذي نظم قصائد عديدة من ديوان إقبال (**رسالة المشرق**)، وأشهرها قصيدة شكوى وجواب شكوى، وهي التي باتت أشهر قصائد إقبال، ومنذ السبعينيات غنّتها السيدة أم كلثوم، وصارت على ألسنة الناس رمزاً للعزّة الإسلامية، والإسهام الحضاري للمسلمين خلال التاريخ.

كما ارتبط اسم زهير ظاظا بديوان (**جناح جبريل**)، وقد طبعته دار إقبال في دمشق (1998)، وقد نظمه بصورة أكثر غزارةً وتدفقاً في الصور والتشبيهات والاستعارات، ولكنها لم تحظَ بعدُ بما تستحقه في النشر والتوزيع، وربما كانت بحاجة إلى صوت آخر كأم كلثوم ينشرها في روحانيات الشعب، وما زلت أتمنى على الصديق زهير ظاظا أن ينظم كلّ شعر إقبال ومثنوي جلال الدين، وبذلك يقدم للمكتبة العربية أروع ما اختزنه التاريخ الإسلامي من حكمة وفلسفة.

---

[8] مقال للأستاذ صلاح حسن رشيد بعنوان «العلّامة حسين مجيب المصري عصر من العطاء والنسيان»، نشرته صحيفة الحياة اللندنية 2016/2/5.

[9] موقع الوراق يتولّى نشر نفائس الأدب العربي، وقد نشر فيه زهير ظاظا نظماً لأرمغان حجاز. http://www.alwaraq.net/Core/dg/dg_search

كما أنني اقتحمت بنفسي هذا الباب الرهيب من نظم شعر إقبال، وأسهمت بما في جعبتي من تناثر الكلمة، وأرجو أنني حققت إقبال في فكره وثورته، أو في ألمه وتوقه على الأقل، وستجد في الكتاب عدداً من القصائد التي نظمتها من روح إقبال، وهي تُنشر هنا لأوّل مرّة.

ويجدر القول إن الفضل الأكبر في نقل تراث هذا العلّامة يعود إلى عبد الوهاب عزام، الذي كرّس حياته لنشر معارف إقبال وترجمتها، وقد أظهر براعة ظاهرة في نقل الفكرة نثراً، ولكن نظمه القصائدَ جاء فقيراً في الصورة ورقص الكلمات، ومع ذلك، يجب القول إن ما رويناه عنه هو من جهة الفكرة أوثق ما ننسبه إلى إقبال.

وهذا بسط الدواوين التي وصلت إليّ من شعر إقبال، وفيها بيان المترجم والناظم:

الاسم العربي	اللغة	السنة	الاسم الأصلي	المترجم إلى العربية	الناظم بالعربية	الناشر
أسرار الذات	الفارسية	1915	أسرار خودي	عبد الوهاب عزام	عبد الوهاب عزام	مؤسسة هنداوي، القاهرة
رموز نفي الذات	الفارسية	1918	رموز بيخودي	عبد الوهاب عزام	عبد الوهاب عزام	مؤسسة هنداوي، القاهرة
رسالة المشرق	الفارسية	1923	بيام مشرق	عبد الوهاب عزام	عبد الوهاب عزام	مؤسسة هنداوي، القاهرة
زبور العجم	الفارسية	1927	زبور عجم	حسين مجيب المصري	حسين مجيب المصري	الأنجلو المصرية، 1977
رسالة الخلود جاويد نامة	الفارسية	1932	جاويد نامه	حسين مجيب المصري	حسين مجيب المصري	دار ابن كثير، بيروت، 2007
المسافر	الفارسية	1936	مسافر			
ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق	الفارسية	1938	بس جه باید کرداي أقوام مشرق	أحمد الغازي	الصاوي شعلان	دار ابن كثير، بيروت، 2007
هدية الحجاز	الفارسية	1938	أرمغان حجاز	حسين مجيب المصري	حسين مجيب المصري	دار ابن كثير 2007
صلصلة	الأوردية	192	بانكادرا	الصاوي شعلان	الصاوي	دار ابن

الجرس	ة	4			شعلان	كثير، 2007، بيروت
جناح جبريل	الأوردية	1936	بال جبريل	الى الفرنسية: ميرزا سعيد ظفر شاغتي والسيدة سوزان بوساك، ومن الفرنسية إلى العربية عبد المعين الملوحي	زهير ظاظا	دار إقبال، دمشق، 1997
عصا الكليم	الأوردية	1937	ضرب كليم	عبد الوهاب عزام	عبد الوهاب عزام	جماعة الأزهر للنشر، 1952
تطور الميتافيزيقا في فارس	الإنكليزية	1902	The Development of Metaphisies in Persia.	د.حسن الشافعي، ود. محمد السعيد	نثر	مكتبة الأنجلو المصرية، 1986
تجديد التفكير الديني في الإسلام	الإنكليزية		The Reconstruction of Religious thought in Islam.	محمد يوسف عدس	نثر	لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة، 1955

ونُشير إلى عمل بالغ الأهمية قام به السيد عبد الماجد الغوري، وسمّاه ديوان إقبال، وقد طبعته دار ابن كثير، بيروت، (2007)، في مجلّدين، وقد ضمّ هذا العمل تسعة دواوين

كاملة لإقبال، وأشار إلى مترجميها وناظميها وفق ما بيّناه، وهي: (صلصلة الجرس، والأسرار والرموز، ورسالة الشرق، وزبور العجم، وجناح جبريل، وضرب الكليم، ورسالة الخلود، وهو المسمى (جاويد نامه) ويا أمم الشرق، وهدية الحجاز).

وسبقت الإشارة إلى نظم آخر لديوان هدية الحجاز، أو أرمغان حجاز، قام به زهير ظاظا ونشره على موقع مدوّنة الوراق.

ويمكن القول إن هذا هو كلّ ما وصل إلى العربية من أعمال إقبال، وقد نشرت بنظم الشعراء الخمسة المذكورين.

والتزاماً بقواعد الناشر سأشير في كلّ موضع للصفحة المقصودة، وسأعتمد في الإحالات على ديوان إقبال بطبع دار ابن كثير (2007)، باعتناء الأستاذ عبد الماجد الغوري.

أمّا الأبيات التي نظمتها، فهي تُنشر لأوّل مرّة، وسأشير إلى أصل الفكرة عند إقبال.

والخمسة يطوفون في روضة إقبال ويشربون من ندى كفّيه، وأقرّ مسبقاً بأنني، وإن كنت أزاحمهم على صحائف الورق، فإنني لا أزعم أبداً أنني كفؤ لهم في الشعر، ولكنني كفؤ لهم في الحبّ والوفاء لهذا الحكيم النبيل، وسبحان من أعطاهم عميق الصورة وبديع التعبير وسحر الكلمة، وسبحان من أودع في كلّ قلب ما أشغله.

أرجو ان أكون قد قدّمت في هذه الدراسة ما هو جديد ومفيد، وأن تكون كلماتنا في إقبال جزءاً من الوفاء لهذا الشاعر الإنساني النبيل، الذي كان جسراً ثقافياً هائلاً بين العرب والباكستان، ولعلّه يظلّ أبرز معالم القيام والنهضة في التاريخ الحديث للأمة الإسلامية جمعاء، وللمشروع الإنساني في كلّ مكان في هذا العالم.

تمهيد

وقف إقبال على أطلال أمة كانت مناراً للتاريخ ومركزاً لإبداعه وإشراقه، فهاله ما رأى فيها من تيهٍ وضياع، فعقد العزم على إيقاظ هذه الأمة النائمة، وبعث الروح فيها من جديد، وسخّر حياته لهذا الهدف النبيل، واستطاع أن يخلّد أروع ما أنجزته الأمّة في قيامها، وأن ينبّهها إلى خطر سباتها ورقادها، وأن يعزّز فيها إرادة الحياة وشرف القيام.

لا يخرج شعر إقبال عن هذا الهدف النبيل، ولأجله كرّس قلمه وفكره وروحه، ومن العسير أن تقف في شعره على معارك شخصانية جانبيه تفسد هذا المقصد السامي، ولن تقع عينك، على الأقل فيما وصلنا من شعره بالعربية، على أيّ نصٍّ يناقض هذه الغاية، أو يفسد نبل ما فيها، وطهر ما تشتمل عليه.

ومع أن كثيراً من النقّاد باتوا يعيبون الشعر الملتزم، ولهذا الموقف حججه وبراهينه في الأدب والإبداع والنقد؛ ذلك أن الإبداع الأدبي يتطلّب فضاءً حراً ومستقلاً، ولكني أستطيع القول إن شعر إقبال يقف في الجانب الآخر، وإن التزامه بقضاياه أمر محسوم، ولكن البراعة تكمن في أنه سخّر أدبه لهذه الغاية من دون أن يفسد رونق الأدب والإبداع بإطار الرسالة، ويبدو أنه كان قانعاً بأن الغاية التي يسعى إليها هي الحياة كلّها، وهي الخلود كلّه، وهي المجد كلّه، وبات مقتنعاً بأن الفضاء الذي تسبح فيه كلماته بات كافياً لرسم أوسع صور الإبداع، ولم تعد فيه حدود، ولا قيود، وهذا بالضبط جوهر ما تسعى إليه المدرسة النقدية الرافضة للالتزام.

ويمكن تلخيص فكر إقبال بأنه فكر القوّة، فالرجل مؤمن بالقوة سبيلاً للقيام؛ قوّة الفرد وقوة المجتمع وقوة الفكرة وقوة الاعتقاد وقوة الأخلاق وقوة الالتزام؛ إنه لا يؤمن بأنصاف الحلول ولا بأنصاف الرجال ولا بأنصاف الثورات، ولا بأنصاف الحضارات، فالوهن يفسد الأفراد ويفسد المجتمعات ويفسد الأخلاق، والماء الفاتر لا يستعذبه أحد، ولا يشفي جرحاً ولا يبرد ظمأً، وربّما كانت هذه النقطة بالذات هي التي عقدت رباطه بفيلسوف القوّة الناري فريدريش نيتشه.

رأي غانـدي إن كنـت غيـر قـوي غيـر مجـد فـي ملتـي واعتقـادي
لـــيس إلا عصـــا الكلـــيم لســـحر ** برهمـــي مشـــعوذ فـــي الـــبلاد[10]

إقبال والعرب

مع أن إقبال خطا بثقة وشجاعة نحو الإنسان العالمي، واستطاع أن يخلّد في كتاباته عيون الحكمة من فلاسفة الشرق والغرب، وطرح الحوار الهندي الأوربي بثقة واقتدار، لكنّه مع ذلك ظلّ وفيّاً للدوحة العربية التي استظلّ فيها بظلّ الوحي، وظلّ يتحدّث عن أرض العرب مصدر إلهام وعطاء وروح.

كتب أحمد حسن الزيّات في إقبال «لقد نبت جسمه فى رياض كشمير، وانبثقت روحه من ضياء مكّة، وتألف غناؤه من ألحان شيراز، داعيةً لدين الله فى العجم، يفسر القرآن بالحكمة، ويصور الإيمان بالشعر، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح، وينفر من حضارة غربية تقدّس الإنسان والمادة»[11].

وعلى الرغم من ارتباط قيام باكستان برسالة محمد إقبال، واعتباره المرشد الروحي لقيام هذه الدولة الإسلامية المجيدة، لكن من العسير أن نجد في شعره، أو فكره، ما يوحي بتلك الحدود المرسومة على تخوم الوطن الجديد؛ لقد ظلّ يفكر بمنطق عالمي عابر للأوطان والأزمان، يكون فيه الإنسان الكامل (المسلم الموعود) روحاً لهذا العالم.

---

[10] الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج2، ص 460.
[11] عدد خاص خصّصته مجلة الدوحة القطرية للحديث عن إقبال، حزيران/ يونيو 2014، والمقال من تحرير هند عبد الحليم.

كتب أبو الحسن الندوي: «ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا ينحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيّقة؛ بل يتخطّى حدود الزمان والمكان، في مساحة زمانية شاسعة كتاريخ العالم الإسلامي ومساحة مكانية شاسعة كمساحة العالم الإسلامي»[12].

كان مؤمناً تماماً بأن الجيل الأول حول رسول الله استطاع أن يقود العالم بكفاءة واقتدار، وقدم خلال التاريخ سلسلة من الإنجازات الهائلة التي تحتاجها البشرية، والتي ترسم في ذاكرة العالم روح نهضة متوثّبة لا تزال قادرة على المزيد من العطاء.

وابل من فيض أمي اللقب الكريم الفرد في كل الكرام
أنبت الزهر بصحراء العرب * وسقى في القفر بستان الوئام [13]

إنها الرسالة التي بدأت بصوت بلال الله أكبر، وهدمت أوهام الجاهلية الأولى، وأسّست لحضارة إنسانية جديدة تخلف الأنماط التائهة من الحضارة الرومانية والفارسية.

من حول البيد روضاً والحصى درراً
وأنبت الورد في الصحراء للعرب
أستغفر الله ما غير النبي بها
أغنت مكارمه فيها عن السحب* [14]

لقد كتب كثيراً عن روائع الحضارة الإسلامية في دمشق وبغداد وأصفهان ودلهي وسمرقند وقرطبة، ولكن المشهد الذي لم يكن ينساه أبداً هو مشهد الصحراء العربية، التي كان عمقها وصفاؤها ونقاؤها أقدر من كل هذه الحواضر العظيمة على التعبير عن روح الإسلام الخالدة الوثيقة الاتصال بالأرض، والعميقة الوصال بالجذور.

هضبات نجد في مغانيها المها ومحاور الغزلان ملء تلالها
والمجد مشتاق وأمة أحمد * يتهيأ التاريخ لاستقبالها[15]

---

[12] الندوي، أبو الحسن علي الحسني، روائع إقبال، دار الفكر، دمشق، ص 55.
[13] نظم عبد الوهاب عزام، من ديوان إقبال: والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 2، ص 385.
[14] المصدر نفسه، ص 383.
[15] اشتهرت عن إقبال ولم أجدها في دواوينه، وقد نقلتها عن كتاب مملكة البيان لعائض القرني، دار ابن حزم، ص 114.

وحين تحدث عن حضارة المسلمين كان يقرأ من سطور التاريخ سبائك الذهب التي نسجتها الحضارة الإسلامية في قلب التاريخ الوسيط، وحوّلت أماني الأمم إلى عواصمها الرائدة تلتمس فيها بريق الحضارة وموعد المستقبل:

لا تقــلْ أيــن ابتكــار المســلمين وسلِ الحمراء واشهد حسن تاج
دولـــة ســـار ملـــوك العـــالمين نحوهـا طوعـاً يـؤدّون الخـراج

كبّــروا الله فـــي ظـــلّ الحـــروب وصـــفوفاً تحـــت ظـــل المســـجد
ضـجة دانـت لهـم فيهـا الشـعوب * وارتقــوا فيهــا مكــان الفرقــد[16]

أين خمد ذلك اللهيب؟ ولماذا تحوّل إلى رماد بائس؟ ولم لا يقوم المسلم اليوم بحمل تلك الراية بالعزائم الأولى التي كان عليها أجداده، إن أمّة قدّمت في الماضي براهين التفوّق قادرة أن تقدم ذلك في كلّ حين:

وي كـأن لـم تشـرقوا فـي الكائنـات بهـدى الإيمـان والـنهج الرشـيد
ونســيتم فـــي ظـــلال الحادثـــات * قيمة الصحراء في العيش الرغيد[17]

كان يشعر بانتماء عميق لهذه الحضارة العربية التي اصطبغت بنور الإسلام ورايته، ولم يقبل أبداً أن يصمت على الواقع العربي والإسلامي الذي كان يشهد سقوطاً وشتاتاً، وكانت الدول الكبرى تتقاسم أقاليم العالم الإسلامي في الغرف المغلقة وتسمّيه الرجل المريض.

وحين كتب إقبال عباراته كانت الأمة العربية بالكامل ترزح تحت الاستعمار الأوربي، وتتقاسمه بالكامل إرادات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وكان وجود الأمة العربية نفسها محلّ جدل، فقد فشل المشروع العربي في نقل الخلافة من اسطنبول إلى مكّة فشلاً مريعاً، ومع أن الشريف حسين كان قد أطلق الثورة العربية برعاية بريطانية وفرنسية، ولكن الدولتين الكبيرتين كانتا ترسمان المنطقة على خريطة أخرى، ولم يكن فيها مكان لصاحب مكّة، الذي وجد نفسه لاجئاً في قبرص، وطاح الحلم بالخلافة الإسلامية الكبرى، وتحوّل مشروعه إلى حكومات متتابعة في ظلّ الانتداب البريطاني في العراق

[16] إقبال، محمد، ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج 2، ص 386.
[17] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والأردن، ولم يجد من يحمي له كرسيه في الحجاز، وحين اختار ضريحه الأخير في القدس كان مشروعه قد انحسر في حدود الضفة الشرقية للأردن، وودعه ولده عبد الله عام (1931) في ظروف بالغة التعقيد، ليس فيها أدنى بريق لخلافة موعودة ضاعت في قمار الأمم.

كان إقبال يثير الحماسة والأمل بالجيل الجديد من الأمة العربية، ويذكّرهم بدورهم في قيادة العالم، والوفاء الكبير الذي تحمله الأمم الإسلامية لهذا الشعب النبيل.

كل شعب قام يبني نهضة ... وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة ... لهف نفسي كيف صرتم أمما

كل من أهمل ذاتيته ... فهو أولى الناس طرا بالفناء
لن يرى في الدهر قوميته * ... كل من قلد عيش الغرباء[18]

وصرح إقبال بأن العرب يفتقدون قائداً ملهماً يحمل أمانيهم إلى المكان الذي يستحقّون، وما أشدّ ما كان مدهشاً إعجابه بالزعيم التركي مصطفى كمال أتاتورك، الذي تحدث عنه طويلاً بوصفه قائداً وطنياً شجاعاً، واجه أطماع الغرب ببسالة وندية واقتدار، وتمكّن من بناء الجمهورية على ركام من التشرذم والانقسام، في تحدٍّ باسل لمشاريع الهيمنة والتقسيم، التي كانت تُرسم وتُباع وتُشرى لبلاد الخلافة في العواصم الأوربيّة المنتصرة.

كانت البلاد العربية في واقع مزرٍ ومحبط، ولم تكن هناك إرادات واقعية لقيام أمة عربية في الجغرافيا، أو في السياسة، وكانت فرنسا تكرّر في سورية سياساتها في فرنسا الجزائر، وكانت بريطانيا ترى أن العراق وفلسطين ومصر منصّة متقدّمة للتاج البريطاني، امتداداً طبيعياً للمملكة التي لا تغرب عنها الشمس.

ولكنّ إقبال تحدث عن العرب باحترام غير عادي، وتوجه إلى عواصم الإسلام في دمشق وبغداد والقاهرة كما لو أنها ما زالت أيام هشام وهارون الرشيد، وكما لو كانت قبابها ومناراتها لا تزال مقصد العالمين لدراسة العلم والحكمة والنور.

---

[18] المصدر نفسه، ص 388.

وفي كتاباته المتكررة كان يعيد الحديث عن المجد العربي، ويؤكّد على الدور العربي في ريادة العالم الإسلامي، واشتهرت في ذلك رائعته الجميلة: «أمة الصحراء».

أمّــة الصــحراء يــا شــعب الخلــود مــن ســواكم حــلّ أغــلال الــورى
أيّ داع قـــبلكم فـــي ذا الوجـــود صــاح لا كســرى هنــا لا قيصــرا

مــن ســواكم فــي حــديث أو قــديم أعلــن القــرآن صــبحاً للرشــاد
هاتقــاً فــي مســمع الكــون العظــيم * لــيس غيــر الله ربّــاً للعبــاد[19]

كتب إقبال ببراعة ورضا فكرة تفوق اللغة العربية، مع أنه كان بالغ الاعتزاز بثقافته الهندية، ودائم الفخر بسحر الهند، وطوفان فارس، ومجد الأفغان، ولكنه مع ذلك نجح في أن يمنح العرب صفة اللغة المقدّسة التي حملت القرآن والأذان في كلّ مكان في العالم.

لقد كانت قراءة إقبال لمجد العربية واعية وبصيرة، وفي هذا السياق يمكننا الإشارة هنا إلى أن اللغة العربية حقّقت حلم الحكماء عبر التاريخ، فقد أخفقت الإنسانية في جمع العالم على لغة واحدة، ولا تزال اللغات المتعدّدة، إلى اليوم، ترسم ملامح الهيئات الدولية كافةً، وكان أشدّ هذه المحاولات فشلاً هو لغة الإسبرانتو التي تمّ التوافق عليها بين مؤسسات كبرى في العالم (1905) لتكون لغة البشرية السهلة الممتنعة، ولكنها تحوّلت إلى حنوط لغة ما فيها من رقّة الآداب وحنو اللغات شيء، وانحسرت على نفسها، وباتت جزءاً من لغة لاهوتية بائسة، لا دور لها على الإطلاق في التواصل البشري المتسارع.

ولا بأس في أن نوضح، هنا، أن العربية تمكّنت من أن تكون لغة العالم لستّة قرون في إطار الثقافة والدبلوماسية على أقلّ تقدير، وهذا مجد لا يُنازع للعرب، كما أنها ظلّت لغة القرآن والشعائر، ولم تستطع أيُّ حضارة أن تقلّل من دورها البنّاء في الريادة الحضارية، وهي بذلك تختلف عن اللغة الإنكليزية التي حقّقت انتشاراً هائلاً في العالم، لكنّها ظلت لغة تواصل وتجارة وأعمال، ولم تدخل إلى وجدان الشعوب لغةَ عاطفة وروح.

وفي هذا السياق، فقد اختارت شعوب الشرق اللغةَ العربية لصلاتها ومناسكها وعبادتها وتحيّتها وسلامها، واختارتها أسماء على أولادها، واسم محمد وعمر وعلي وخالد

[19] إقبال، محمد، ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 384.

وجعفر وعبد الله وعبد الرحمن، وغيرها من الأسماء العربية، تملأ العالم الإسلامي من أندونيسيا إلى إيران، ومن كازاحستان الى سيريلانكا، وكذلك في تركيا والقوقاز والبلقان، مع أن هذه الاسماء لا معنى لها في اللغات المحليّة، ولا شكّ في أن ذلك يعدُّ وفاءً للغة القرآن ومجده، في حين أن العالم الذي يتحدث الإنكليزية، اليوم، لم يتحوّل إلى أسماء بريطانية، ولا يتسمّى الهنود، ولا القوقازيون، ولا الأفغان، باسم جاك واليزابيث ومايكل...، إنه تعبير بسيط عن الارتباط الروحي الذي تكنّه هذه الشعوب للّغة العربية، ودورها الحضاري والعلمي في العالم.

فكّروا في عصركم واستبقوا طالما كنتم مثالاً للبشر
واملؤوا الصحراء عزماً وابعثوا * مرةً أخرى بها روح عمر[20]

كتب ناقد هندي: «إن إقبال رجل ظمآن على ضفة نهر (الغانج)، لكنه يبحث عن الماء في صحراء العرب».

أجابه إقبال على سخريته هذه بقوله: إن كل ما قاله صحيح تماماً، وقد لخّص بمقولته هذه ما أردت أن أقوله، إن صحراء العرب هي منبع كلّ ريق، وهي التي استمدّت منها كلّ البشرية الإسلام، وهو أعذب من أيّ ماء، وما الغانج إلا جدول صغير في المحيط الطامي لصحراء العرب التي يتدفق فيها نور الوحي[21].

أنا أعجمي الحبّ إلا أنني أطلقت في الحرم الشريف لساني
كم ثوب إحرام على متضرّع ** مزّقته به باللحن من ألحاني[22]

ولقد أكّد هذا التعبير بالذات كلُّ الذين ترجموا لإقبال، وكان إقبال يكرر أن لحنه من الحجاز، وإن كان نسبه من الهند. ومن خلال هذه الصورة الغنية بالثقافتين، كان يمسك ريشته وقلمه ويخطّ أغنى العبارات تدفّقاً وإلهاماً...

[20] إقبال، محمد، ديوان والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 388.
[21] خضر، أحمد نبيل، مقال «إقبال أعجمي ذو لحن حجازي»، نشرته مجلة البديل المصرية، 9 شباط/ فبراير، 2013.
[22] إقبال، محمد، ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 430.

صـــوت قيثـــارتي التـــي ســـمعوها * أعجمـــيٌّ لكـــنَّ لحْنـــي حجـــازي[23]

والصحراء عند إقبال رمز فلسفي وفنّي للشهامة والرجولة والشجاعة وكلّ فضائل الفطرة التي تفقدها الشعوب المتحضرة.

الصحراء أفق آخر للفطرة النقيّة والوضوح والصفاء؛ حيث لا تزدحم الطبيعية بتفاصيل الأشياء، وهي رمز يحقّق للإنسان كبرياءه واستغناءه عن تعقيد الحياة

أنـا نجـل الصـحراء والزهـد دينـي وهمـــا فـــي سجيَّـــتي ودمـــائي
أجهـلُ الزهـرَ والنسـيمَ ومـا فـي لوعـــة العنـــدليب عنـــد المســـاءِ

وجمـــال البســـتان يُغـــري، ولكـــن لـــيس يغـــري مُنَشَّـــأً فـــي العـــراءِ
أيـــن مجـــدي إذا شَـــقِيتُ لجـــوع ** وأذلَّـــتْ حمامـــة كبريـــائي؟[24]

لم يكن يجهل أنها صحراء قاحلة ليس فيها حدائق لاهور ولا جبال كشمير، ولكنه كان يجد فيها ريّه وفؤاده، وما أشدّ ما كان يتمنى أن تدرك غابات الهند دفء صحراء الحجاز، وأن تدرك الحكمة الهندية العريقة كيف تعزف على أوتار الإشراق المحمدي:

[23] المصدر نفسه، ص 445.
[24] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مـا بـال أغصـان الصـنوبر قـد نـأت عنهـــا قماريهـــا بكـــل مكـــان
وتعـرّت الأشـجار مـن حلـل الربـى وطيورهـــا فـــرّت إلـــى الوديـــان

يـــاربّ إلا بلـــبلاً لـــم ينتظـــر وحـــي الربيـــع ولا صـــبا نيســـان
ألحانـــه بحـــر جـــرى متلاطمـــاً فكأنـــه الحـــاكي عـــن الطوفـــان

يـــا ليـــت قـــومي يســـمعون شـــكاية هـي فـي ضـميري صـرخة الوجـدان
اســـمعهموا يـــارب مـــا ألهمتنـــي وأعـــد إلـــيهم يقظـــة الإيمـــان

أنـــا أعجمـــي الـــدن لكـــن خمرتـــي صـــنع الحجـــاز وكرمهـــا الفينـــان
إن كـــان لـــي نغـــم الهنـــود ولحـــنهم * لكـــن هـــذا الصـــوت مـــن عـــدنان[25]

ولقد ظلّ في شعره وفياً للغة العربية ولأرض الحجاز، وكتب بعمق وروح ليعزّز هـذه الثقافـة الأصـيلة، وأطلـق علـى العـرب «رسـل النخـل»، وأحيانـاً «رسـل الصحراء».

رحل إقبـال قبـل أن تتحقّق أمنيتـه التـي غنـى لهـا طـويلاً، وهـي العـودة إلـى أرض الحجـاز، وبـات غامضـاً الجـواب عن التسـاؤل: هـل زار إقبـال الحـرم أم لا؟! لـم يسجّل في قصائده تصريحاً أنه زارالحرم، وفـي الوقت نفسـه لـم يسـجل تصـريحاً أنّه لم يزره، ولكنّ آخر عهده بذكر الحرم كلمة حزينة مريرة:

مـــولاي خـــذ بيـــدي ليثـــرب إنـــه بتـــراب يثربـــك المطهـــر مرهمـــي
ضـــيعت إيمـــاني ومعرفتـــي علـــى ** شكّ الفرنج ووسوســـات البرهمي[26]

[25] إقبال، محمد، ديوان صلصلة الجرس، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 100.
[26] إقبال، محمد، ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 428.

في الحضارة الاسلامية

في مقدمته لديوان (جاويد نامه) كتب هرمان هسه (Hermann Hesse): ينتمي السير محمد إقبال إلى ثلاثة أحياز روحية، وهذه الأحياز الروحية الثلاثة هي منابع آثاره العظيمة، وهي: حيّز القارة الهندية، وحيّز العالم الإسلامي، وحيّز الفكر الغربي[27].

لقد كتب إقبال طويلاً في الحضارة الإسلامية، وتمكّن من أن يرسم بريشته أروعَ ما في الحضارة الإسلامية وأشدّها نقاءً وتألقاً.

إنه لم يكن يتحدث كأستاذ في التاريخ، لقد كانت رسالته واضحة، وهي أن من أنجز ذلك اللون الفريد من الحضارة قادر على أن يعود إلى المجد مرةً أخرى، أوليس الذي خلق الحضارة الأولى بقادر على أن يخلق مثلها؟ بلى وهو الخلّاق العليم؛ إنه ينصّب المسلم على منصّة الإبداع العالمي في مكان القائد الآسر للقلوب تترقّبه الأمم، وتنتظره العزائم، ويحاول أن يبعث فيه إرادة الحياة من جديد.

لقد تغنّى بالقادة الفاتحين، وإقبال في الواقع ابن المرحلة اللاهبة التي شهدها العالم بين الحربين، كما أنه ابن الهند الثائرة في وجه بريطانيا، وابن الأمّة التائقة إلى باكستانها الجليل...، ومن الطبيعي أن ينحاز إلى الأبطال المنتصرين، وأن يستلهم منهم أبطالاً من جديد يقومون بعبء التغيير في هذا العالم الإسلامي المنكوب.

كان يدرك تماماً أن هذه الآمال الكبار لن تأتي بالأمنيات، وأن التاريخ لا تصنعه النوايا الطيبة، وأن العالم مهما حفل بالعظماء والحكماء والفقهاء، فإنّ العسكر هم الذين يكتبون التاريخ، وهم الذين يرسمون مستقبل الأمم.

---

[27] تحقيق محمد السعيد جمال الدين لكتاب إقبال جاويد نامه، طبع مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2007، ص 5.

كان يقاسم نيتشه غضبه على الكهنوت وعلى الأخلاق الخانعة التي يعلمها الكهنوت، لم تكن تعجبه ثقافة إذا ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر وإذا أخذ رداءك فاعطه إزارك... وهي المعاني نفسها التي تكرّسها المدارس المنتشرة للصوفيّة الفاشلة، التي حوّلت المجتمع الإسلامي إلى ملالي ومريدين، وأعلن غضبه الحارق على الفهم المتشظّي للدين والإنسان، لقد كان يعجبه الثائر القويّ، الذي يملك أقداره بيمينه ويكتب مستقبل الأجيال بزنده، ويكتب بسيفه حركة التاريخ.

وسجّل إقبال في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) إعجابه الكبير برجال ثلاثة من زعماء الهند، وهم: أحمد الفاروقي السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي، وأورنك زيب، وقال لولا هؤلاء الثلاثة لابتلعت الهندُ الحضارة الإسلامية.

أمّا أحمد الفاروق السرهندي المتوفّى (1624)، فقد كان من أبرز علماء الشريعة، وكان مرشداً على الطريقة النقشبندية، وعُرف في التاريخ باسم مجدّد الألف الثاني، وقد اشتهر بصلابته وثباته في وجه السلطان أكبر، ومقاومته لمشروع الدين الجديد الذي دعا إليه أكبر. أمّا ولي الله الدهلوي، فقد كان أبرز علماء الشريعة وفقهائها في الهند، وقد توفي عام (1762). أمّا أورنك زيب، فقد كان أبرز سلاطين المغول المسلمين في الهند (1658-1707)، وقد نجح في بسط سلطان المغول المسلمين على كامل تراب الهند، وأوقف انهيار الدولة المغولية.

وهؤلاء الثلاثة يرمزون، في فكر إقبال، إلى قوّة المسلمين في الهند، وقد كانت الهند أحوج ما تكون إلى ثقافة القوّة في أيام إقبال، بعد أن مارست بريطانيا احتلال الهند بشكل مباشر عقب إسقاط السلطان بهادر شاه.

ويجب القول إن إقبال لم يكتب على نسق هؤلاء المرشدين في الفكر، لقد كتب على نسق جلال الدين الرومي، وابن عربي، وجمال الدين الأفغاني، ولكنه عدّ هؤلاء الرجال الثلاثة روائز كرامة وإرادة وثبات للمسلم الناهض في القارة الهندية، وإن كان مشروعهم الفكري والتراثي غير متطابق مع رؤيته ودراساته.

ويقدّم الدكتور محمد البهي مقارنةً بالغة الأهمية للدور الإصلاحي الذي قام به إقبال، ويعدّه تناوساً فكرياً كاملاً مع مشروع الشيخ محمد عبده الإصلاحي:

«محمد عبده ومحمد إقبال كلاهما قام بمحاولة فكرية إسلامية، أو بحركة إصلاحية في تعديل المفاهيم الإسلامية، قصد منها بيان القيمة الإيجابية في توجيه الإسلام. وكلاهما دُفع، إذاً، إلى هذه المحاولة تحت ضغط عامل خارجي؛ أحدهما -وهو الشيخ عبده- تحت ضغط الاستعمار الصليبي، والثاني -وهو محمد إقبال- تحت ضغط الفكر المادي الطبيعي وسيادته في أوربا وانتشار الدعوة إليه في الهند خاصةً في ذلك الوقت عن طريق السيد أحمد خان والشاعر التركي توفيق فكرت من دعاة مذهب أوجست كومت في حركة التجديد الإسلامي في تركيا، وكلاهما أخلص في محاولته، وبذل مجهوداً مشكوراً فيه»[28].

ولم يكن إقبال غانديا في فهمه لحركة التاريخ، لقد كان واقعياً تماماً، ولم يكن يكتم إعجابه بتلك القوافل الهادرة من المجاهدين الباسلين، الذين وثبوا من صحراء العرب، وفرضوا قيم رسالتهم على عواصم الحضارة، وألبسوا العالم ثوباً جديداً...

كتب بريشته بطولات قادة الفتح الإسلامي كما لم يكتبها شاعر آخر، حتى صارت أشعاره في الفتح الإسلامي أغنية العزيمة والبأس والإرادة في شفاه شباب العالم الإسلامي كلّه.

توحيد الله لنا نور ... أعددنا الروح له ثمنا
الكون يزول ولا تمحي ... في الدهر صحائف همتنا

الصين لنا والهند لنا ... والعرب لنا والكلّ لنا[29]
أضحى الإسلام لنا ديناً ... وجميع الكون لنا وطنا

في ظلّ السيف تربينا ... وبنينا العزل لدولتنا
علم الإسلام على الأيام ... شعار النصر لملتنا

[28] البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص 424-426.

[29] ومن طرائف ما أرويه أن الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله، المفتي العام لسورية، كان قد اختار هذه الكلمات نشيداً رسميّاً لمدارسه الإسلامية، وأذكر أن سفير الصين في الثمانينيات زارنا ذات يوم، وحين استمع إلى النشيد أفزعه التعبير الإقبالي بعبارة الصين لنا والهند لنا، وقد توجه باحتجاج رسمي للحكومة السورية، ممّا ألزم تغيير هذا النشيد.

وأذان المســـــلم كـــــان لـــــه فـي الغـرب صـدى مـن همتنـا
قولـــوا لســـماء الكـــون لقـــد طاولنـــــا المجـــــد لهمتنـــــا

يـــا دهـــر لقـــد جربـــت علـــى نيـــــران الشـــــدة عزمتنـــــا
طوفـــان الباطـــل لـــم يغـــرق * فـــي الخـــوف ســـفينة قوتنـــا[30]

وفي قصيدته الرائعة «شكوى وجواب شكوى» يطرح إقبال نفسه من أفق جريء؛ حيث ينطلق في معراجه الروحي المثير في حوارية إلهية رائعة يقف فيها أمام الله محامياً بارعاً، ويطرح أسئلته ليس على سبيل الجاهل المتعلّم، وإنما على سبيل العارف المتمكّن، فيشرح أمام الله ما قدّمته الأمّة الإسلامية من تضحيات من أجل رشد العالم ونهوضه، ثم يسأل بالشجاعة إيّاها عن سبب تخلّي الله عن الأمة الإسلامية، الذي انعكس في عجزها عن الحفاظ على عرشها التليد، وتحوّلها إلى أمّة تائهة في طوفان الأمم:

القصيدة الرائعة ترجمها عبد الوهاب عزّام ونظمها الصاوي شعلان:

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالاً في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبلِ الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا
وكأنَّ ظِلّ السيف ظِلّ حديقةٍ خضراء تنبت حولنا الأزهارا

من قام يهتف باسم ذاتك قبلنا من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا تماثيل الصخور وقدَّسوا من دونك الأحجارَ والأشجارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالةً لم يبلغوا من هديها أوطارا

هل أعلن التوحيد داعٍ قبلنا وهدى الشعوب إليك والأنظارا
كنا نقدِّم للسيوف صدورنا لم نخش يوماً غاشماً جبارا
لم نخش طاغوتاً يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا

[30] إقبال، محمد، ديوان صلصلة الجرس، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 91.

نـدعو جهـاراً لا إلـه سـوى الـذي صـــنع الوجـــودَ وقـــدَّر الأقـــدارا
ورؤوســـنا يـــا ربّ فـــوق أكفنـــا نرجـــو ثوابـــك مغنمـــاً و جـــوارا[31]

لقد كُتب لهذا الأبيات أن تسجّل في اللحن العربي بصوت كوكب الشرق أم كلثوم، بعنوان «حـديث الـروح»، وسـمعها النـاس، ولا يزالـون، واحـدةً مـن أروع مـا خطّـه قلـم إقبـال، وتدفّقت به روحه، وشدت به حنجرته؛ إنّها جولة في العالم الحضـاري الـذي أنشـاه القيـام الإسلامي الأوّل، والذي صبغ بروحه الجامعة شعوباً وقبائل وأمماً لم يكن ليجمعها شـيء لولا الإسلام.

ومـن المناسـب، هنـا، أن أورد الأبيـات نفسـها مـن ترجمـة عبـد المعين الملـوحي ونظـم الشاعر زهير ظاظا، وهي تتدفّق في صور أكثر غزارة، وأعمق سبراً لغايات الفتوح، وأترك للقارئ الكريم الموازنة بين النصّين الجميلين:

هـــذي الكمـــاة عبـــادك الأخيـــار حملـــوا عنـــاء العـــالمين وســـاروا
أصـــحاب ســـرك والســـيادة طـــبعهم والنـــور فـــي نظـــراتهم والنـــار
فعلـت كموسـى فـي البحـار عصـيهم وتراجعـت لخطـاهم الأنهـــــار

البحـــر حبـــة خـــردل فـــي كفهـــم والعشـــق فـــي أرواحهـــم إعصـــار
عزفـــوا عـــن الـــدارين إلا أنهـــم علـــم علـــى الـــدارين لا ينهـــار

نيـــل الشـــهادة للموحـــد مطمـــح وإذا تقحـــم فـــالجراح غبـــار
لا ســـبي غانيـــة وســـلب خزانـــة ومطالـــب الهمـــم الكبـــار كبـــار[32]

في هذه الحضارة الإسلامية تحرّك ابن بطوطة من المغرب الأقصى إلى الأوسط إلى ليبيا فمصر فالنوبة ثم اليمن والحجاز والشام، ثم تحوّل إلى العراق وإيران والسند، وهبط

---

[31] من ديوان إقبال صلصلة الجرس، تجدها في الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 95
[32] من ديوان إقبال جناح جبريل، تجدها في الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 35.

في القارة الهندية إلى سيرلانكا ثم جزر المالديف، وعلى الرغم ممّا عبره من قفار وأمصار، لكنه لم يحتج إلى جواز سفر، ولم يحتج إلى لغة أخرى، لقد كانت العربية كفاءته وغناه، وحين ركب البحر، ووصل إلى جزر المالديف في قلب المحيط الهندي، لم يجد نفسه بلا وطن، لقد وجد في تلك الجزر الوادعة أملاً وعملاً وزوجةً، وتمّ اختياره قاضي القضاة في جزر المالديف، ولم يرَ نفسه محتاجاً إلى تعلّم شيء آخر؛ فاللغة عربية صريحة، والقانون هو الهدي الإسلامي في السنّة والكتاب، وبعد عام ونصف آب قافلاً إلى بلاده كما جاء من قبل في عالم متّحدٍ لا يشبه في شيء تعقيدات موانئنا ومطاراتنا وسفاراتنا ودروبنا...

وليس خبر ابن بطوطة إلا حكاية في تاريخ الإسلام كان يتكرّر كلّ يوم، في مجتمع كان يحدّد أهم ملامحه بفقه الرحلة في طلب العلم؛ حيث كان الفقهاء والرواة والعلماء يجوبون الأرض في طريق من حرير ينشر المعرفة والحيوية في كلّ مكان.

قد كان هذا الكون قبل وصولنا شؤماً لظالمه وللمظلوم
لما أطلّ محمد زكت الربا * واهتز في البستان كل هشيم[33]

إنها ليست محض دعاوى فارغة، إنها الحقيقة التي يعترف بها كلّ من قرأ هذا التاريخ بروح متوثّبة، وكلّ من فهم تدافع الأمم في العصر الوسيط للدخول في النادي الحضاري الإسلامي المجيد، ولكن أين هو إذاً هذا المجد التليد، وأين ضاعت رياحينه وبساتينه وشذاه؟

إنه يطوف اليوم أطراف هذا العالم الإسلامي الكبير، ويشهد قيام حواضره وأوابده، لا تزال شامخة عالية، لكنّها أحجار وصخور، ولم يعد يتدفق منها ذاك الروح الذي وهبها في التاريخ الحياة والأمل، أين أولئك الرجال الذين كانوا يمنحون هذه الأوابد معناها؟ ويعيدون خطابها جذعاً متيناً تقرؤه الأجيال؟

أرى التفكير أدركه خمول ولم تبقَ العزائم في اشتعال
وأصبح وعظكم من غير نور ولا سحر يطلّ من المقال

وعند الناس فلسفة وفقه ولكن أين تلقين الغزالي

[33] من ديوان إقبال صلصلة الجرس، تجدها في الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 93.

منــائركم علــت فــي كــل أرض ومســجدكم مــن العبــاد خــالي
وجلجلـــــة الأذان بكـــــلّ أرض * ولكـن أيـن صـوت مـن بـلالِ؟ [34]

هكذا تحدثت عبارات إقبال: لا تيأس أيها المسلم!! إنها ليست أوّل مآسي الدهر، ولا هي آخر مآسيه، تذكّر اختلاف الليل والنهار، وتعاقب القيام والسقوط، وتذكّر مجد الإسلام القادم، ولا يهولنك بؤس السقوط المريع.

خلّد إقبال، في أروع قصائده، حكاية سقوط بغداد، في وعي بدرس التاريخ البصير الذي يحتاجه المسلم في قيامه ونهضته، على الرغم من السياق الحالك والمظلم لهذه المأساة الإنسانية الرهيبة.

في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي كان المحارب المغولي هولاكو قد قاد الجحافل الهائجة المنسابة من عاصمة المغول في سفوح الهملايا، لا يصدّها شيء عن غايتها في استباحة كلّ ما واجهها من حضارات وحياة، وبعد أن أحرقت المدائن الإسلامية المتتالية، من خوارزم إلى بلخ إلى نيسابور إلى أصفهان والري وشيراز وقزوين، ولم تسلم مدينة إسلامية من أذى المغول وبطشهم، وصلوا، في النهاية، إلى بغداد، وكانت أيام الهول، التي رواها التاريخ بكلّ مآسيها وجرائمها ونكباتها وأهوالها.

وعلى الرغم من استسلام الخليفة المستعصم لإرادة هولاكو (Holako)، أمر هولاكو بوضعه في كيس من الخيش، ثم أُمرت الخيول الجرّارة أن تتحرك لتدقّ عنقه تحت سنابك الخيل، ولم يشتفِ هولاكو من المشهد حتى سويّت جثة الخليفة بالأرض، ولم يتبقّ منها أثر حياة. أمّا دجلة، فقد طُرحت فيه كتب الحضارة الإسلامية من خزائن بغداد الغنيّة والباذخة، وهناك في قلب العاصمة التاريخية راجت صورة المحارب المغولي تأخذ مكانها في مخيّلة الناس على صورة وحش كاسر لا يؤمن بالإنسان ولا بالمدنية ولا بالحضارة، ويتحرك كوحش هائج.

ثلاثة أعوام من الصمت، وهولاكو يقول: لمن المُلك اليوم؟؟ والجواب هو للسلطان الغازي المنصور المؤيّد هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان!!

---

[34] الأبيات من ديوان صلصلة الجرس لإقبال بترجمة الصاوي شعلان، وهو في ديوان إقبال، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 105.

كثيرون كتبوا عن نهاية العالم، وذهب القرطبي، صاحب التفسير، إلى أن المغول هم يأجوج ومأجوج، وأن دخولهم بغداد هو نهاية العالم بكلّ تأكيد، وشرح ابن كثير الفظائع الدامية التي خلّفت بتقديره نحو ألف ألف قتيل وذبيح، وكان الناس يجتمعون في دور العلماء والأكابر ويغلقون عليهم الأبواب، فيأتيهم المغول فيحرقون عليهم الأبواب، أو يكسرونها، ثم يقتلونهم على الأسطحة والأدراج، حتى تعفّنت الجثث، وفاضت رائحة الموت في كلّ مكان في بغداد، حتى الإمام القرطبي وجد نفسه يتحدث عن المغول النسخة النهائية ليأجوج ومأجوج، الذين يُبعثون يوم الحشر علامةً ظاهرةً من علامات الساعة.

وقد خلّد إقبال بروحه الشاعرية هذه المأساة الرهيبة التي أصابت الحضارة الإسلامية على ضفاف دجلة بقوله:

يـا دجلـة هـل سـجلت علـى شـطيك مـآثر عزتنـا
أمواجـك تـروي للـدنيا * وتعيـد صـحائف سـيرتنا[35]

ولكن الحضارة الإسلامية تمكّنت، في النهاية، من مواجهة المشروع المغولي الهائج، ليس بالجيوش الجرارة، ولا بالأعداد المتدفّقة من المحاربين، ولكن بقوة الحضارة الإسلامية وخلودها، وعمق الحكمة والعرفان فيها.

كانت المفاجأة أن أحفاد هولاكو من سلاطين المغول، بعد أن عاشوا في حياض الإسلام، وتعرّفوا، شيئاً فشيئاً، على القيم الحضارية في الإسلام، بدأت مشاعرهم تتوق لذلك النعيم الروحي، وفجأة أطلّت على العالم وجوه مغولية تعتنق الإسلام، وفجأةً، بعد أن تقرأ ما ارتكبه جنكيز خان (Genghis Khan) وهولاكو وما تبعهما من مجازر، يخبرك المؤرّخون نبأ قيام الدولة المغولية الإسلامية القبجاقية والدولة المغولية الإسلامية الإيلخانية، والدولة الإسلامية المغولية الإستراخانية، وهي دول قامت في الحواضر الإسلامية على يد أباطرة مغول انقلبوا على تاريخهم الدامي وراحوا يبشّرون بالإسلام في حواضرهم!!

كانت أوّل دول المغول تحوّلاً إلى الإسلام هي دولة المغول في روسيا وأوكرانيا، وكانت تُسمّى القبيلة الذهبية؛ حيث تحوّل ملكها بركة بن جيجي بن جنكيز خان إلى الإسلام،

---

[35] الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 91.

وكان ذلك عام (650هـ). أمّا الجولة الثانية، فكانت دولة هولاكو نفسه؛ فبعد مقتل خلفه كتبغا (Kitbuga) تعاقب الأولاد على السلطة، وفجأة اعتنق تيكودار بن هولاكو الإسلام، وتسمّى أحمد، وقد أثار ذلك غضب القادة المغول، ودفعوا ابن أخيه أرغون لقتاله، وحين ظفر به لم يتوان في إعدامه بكلّ بطش، ولكنّ هذا الغضب المغولي الهائل تبدّد بعد سنين قليلة؛ حيث تولّى الحكم غازان بن أرغون، وأعلن رسميّاً دخوله في الإسلام (694هـ) وتلقّب بمحمود غازان!.

أمّا الدولة الثالثة للمغول، فهي دولة كاشغر، التي كانت تمتدّ غرب الصين وتشمل أوزبكستان وعدداً من دول آسيا الوسطى، فقد تحوّلت بدورها إلى الإسلام أيضاً بعد أقلّ من قرن؛ حيث أسلم السلطان المغولي تغلق خان (739- 755هـ) على يد الشيخ جمال الدين وابنه رشيد الدين، وأعلنا كاشغر مدينة إسلامية.

ومن رحم هذه الدول المغولية الثلاث ولدت بعد قرنين من الزمان الإمبراطورية المغولية المسلمة، التي حكمت الهند كلّها ثلاثة قرون ونصف، إلى عام (1858م)، وظهر فيها أباطرة عادلون، وتركت بصمات حضارية كبيرة لا تزال أروع ما نشاهده في ربوع الهند العظيم.

وحين تتجوّل اليوم في القارة الهندية، سيهولك مشهد المآذن المغولية المتناسقة التي تحكي حضارة هذه البلاد الجبارة بعد أن سعدت بربيع الإسلام. وفي لاهور مسجد بابر شاه، الذي يقوم على مساحة تعادل ثلاثة أضعاف المسجد الأموي، وقد كتب على لوحة كبيرة بناه السلطان المغولي بابر ابتغاءَ وجه الله!!

المدارس والإيلخانات والتكايا والزوايا والبيمارستانات المغولية، التي لا عدَّ لها ولا حدّ ولا حصر، بقيت شاهدة على خلود الحضارة الإسلامية، على الرغم من البغي المغولي الكاسر.

أما الفراديس الخالدة والحدائق الغنّاء التي تركها المغول في ربوع القارة الهندية، فهي تعكس الروح الخضراء التي وجدها المغول في فردوس الحضارة الإسلامية ولا يزال قصر تاج محل، الذي بناه السلطان المغولي شاه جهان بطرازه الإسلامي وحدائقه في أكرا في الهند، أروع ما صمّمته الإنسانية كلّها من فنون الجمال.

من كان يصدق أن أحفاد هولاكو سيحملون رسالة الإسلام إلى قلب آسيا ومعهم عبير حضارة معجون بالروح، يأسر أولي الألباب، ويجعل الدنيا كلّها تحن إلى رائحة الشرق؟

وفي الواقع فإنه لم تصدر حتى اليوم دراسة علمية موضوعية تشرح هذا التحوّل التاريخي المدهش الذي ليس له نظير في التاريخ، وتبدو الأسماء المذكورة في سياق هذا التحوّل لعدد من رجال التصوّف المسلمين، كنجم الدين الكبروي وسيف الدين الباخرسي وجمال الدين ورشيد الدين ونجم الدين مختار الزاهدي ورشيد الدين الهمداني، وكذلك الأمير توزون الذي كان مستشاراً لابن أرغون المغولي، غير كافية لرسم ملامح هذا التحوّل العظيم، ولا زلنا في فهم هذه الحكايات عالة على المؤرّخ السير توماس أرنولد (Thomas Walker Arnold) في كتابه الشهير (**الدعوة إلى الإسلام**).

بعد بكائه على أطلال بغداد المفجوعة الذبيحة، راح إقبال يتحدث عن فجر جديد في مشهد الحضارة الإسلامية:

بغت أمم التتار فأدركتها ... من الإيمان عاقبة الأماني
وأصبح عابدو الأصنام قدماً ... حماة البيت والركن اليماني

ضياؤك مشرق في كلّ حين ... لأنك غير محدود المكان
فلا تجزع فهذا العصرُ ليلٌ ... وأنت النجم يشرق كلّ آن
ولا تخشَ العواصف فيهِ وانهض * ... بشعلتك المضيئة في الزمان[36]

وما زال سرّ السقوط والقيام الرهيب الذي وقع في القرن الثالث عشر في هذا الشرق الإسلامي عصيّاً على كلّ تحليل، ولا يمكن منهاجياً تفسير هذا التحول الهائل في دور المغول الذي استفاق عليه المسلمون بعد المحنة الرهيبة.

إنها، وفق تفسير إقبال، قوة الحضارة الإسلامية وشمولها وربّانيتها، وبذلك فحسب استطاعت هذه الحضارة ابتلاع الحضارة المغولية تماماً، وإعادة إنتاجها طاقةً إيجابيّةً خلّاقةً قامت بنشر الإسلام، وتوحيد الهند وتأسيس حضارة إسلامية رائعة فيها لمدّة أربعة قرون!

[36] الأبيات من ديوان صلصلة الجرس لمحمد إقبال، نظم الصاوي شعلان، وهو في ديوان إقبال، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 108.

ولكن ما هذا الواقع الإسلامي العجيب؟ وأين هي أجنحة الشاهين الضارب في كبد السماء، ولماذا عجز الساسة عن قيادة هذه الأمّة إلى حيث تستحق؟

يمضي إقبال بثقة وشجاعة إلى النبيّ نفسه في معراج فريد، ويشرح له في (أرمغان حجاز) عذابات المجتمع الإسلامي المقهور:

الله أنـــت رســـوله ونبيـــه وأنـــا رســـولُ المســـلمين إليـــك
حُمّلـــتُ أحـــزان الجميـــع وصـــية ** أن أنفـض الأحـزان بـين يـديك[37]

إنه لأمر محيّر أن تكون هذه الأمة على منصّة التاريخ سبع قرون متتالية ولكنّها تتوارى اليوم في مسرح الحياة، وتعجز أن تتولّى مكانها التاريخي في سباق الأمم.

هكذا تحدث إقبال، لقد كانت صرخته تتدفّق من كلماته وشعره: أنت أيّها المسلم ابن السماء، وعلى شرفة قصرك تزاحم الأمم في عثار وقيام، وينتظرك العالم اليوم من أجل قيام جديد.

قم وتدفّق فالعالم محتاج إليك وأنت سرّه وضميره وخطابه، كيف أخلدت إلى الأرض وأنت أهل للوثوب إلى السماء؟

أنـــت ابـــن التـــراب أوقـــد لهيبـــاً يجعـل التـرب كالصـخور منيعـاً
وتـــدفق مـــن الصـــخور انســـياباً *** مثلما النهر رقة ودموعـــــاً[38]

ولا يملّ إقبال من بعث الروح في المسلم المتعثّر، ويحُك كيف تقبع في هذه الزاوية الكئيبة وعندك سرّ العالم ونوره، لم لا تزلزل الأرض من تحت قدميك؟!! لم لا تعيد إطلاق رسالتك في العالم كما فعلت ذات يوم؟!!

إن هـــذا العصـــر ليـــل فـــأنرْ أيهـــا المســـلم ليـــل الحـــائرين
وســـفين الحـــق فـــي لـــج الهـــوى لا يـــرى غيـــرك ربـــان الســـفين

أنـــت كنـــز الـــدرّ والياقوت فـــي محفـــل الـــدنيا وإن لـــم يعرفـــوك

---

[37] إقبال، محمد، ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، 435.
[38] نظم محمد حبش، والكلمات في سياق ما قاله إقبال في ديوان الأسرار والرموز، انظر: ديوان اقبال باعتناء الغوري، ج1، ص 120.

محفـــل الأجيـــال محتـــاج إلـــى * صـوتك العـالي وإن لـم يسـمعوك[39]

يستلهم روح المسلم الثائر كذات مقدسة تعصف جوانحها بذكريات أمّة حطّمت أوهام الجاهلية التائهة في تلاطم الهند، وأعلنتها أمّةً واحدةً ذات يوم، وقادت القارّة الهندية بكفاءة واقتدار أربعة قرون، ولا تزال تملك اللهيب واليقين:

يـــا مجيـــد العـــزم هـــل تـــذكرها تلـــك الأوهـــام إذ كانـــت عمـــادا
فأســـك الجبـــار أهـــوى فوقهـــا فاســـتحالت بعـــد أكوامـــاً رمـــاداً

شـــدّ كفّـــي إننـــي مرتبـــــك أعطنـــي عزمـــك وامنحنـــي اليقـــين
أنـــا فـــي دربـــك فـــي الـــوادي الـــذي *** قاعـــه يغلـــي بكيـــد المجـــرمين[40]

هكذا يهتف إقبال بلغته الثائرة ويحُك أيها المسلم، إنّ العالم كلّه يرتقب قيامك؛ إنّها اللحظة التي أنجز فيها العقل موقفه النقدي، وأنجز فيها المجتمع تجاربه البائسة، وضاع في حمى غربة الذات، وبات يتنظر قياماً جديداً.

ليس في أوربا دواء قلبك ولا مرهم روحك؛ إنها عانت غربتك وشرادك وشتاتك، ثمّ صنعت من نفسها ذاتاً جديدةً، إن الظروف جميعاً تطالبك اليوم بالقيام والثورة، وراح يصرخ في الضمير الاتكالي العاجز: أيّها المسلم!! إلى متى هذا الهمود؟

ليس الخطر في توجّه المسلم إلى الغرب، فالحضارة الغربية ليست إلا تطويراً دقيقاً لقيم الحضارة الإسلامية، كما صرّح بذلك روجر بيكون (Roger Bacon)، وغوته (Johann Goethe)، وغيرهم من قادة الفلسفة في أوربا، ولكن الحذر أن يأسرك بريق تلك الحضارة، فتغرق في الظاهر وتترك الجوهر، لاتقرأ ظاهر السطور، اقرأ ما بين السطور، ولا تُخدع بمظهر الحضارة، وانفذْ إلى جوهرها، دربك الصاخب بالتناقضات والقلق هو نفسه درب أوربا الذي سبقتك إليه، فانظر عثارها وشرادها، وارسم لدربك سبيلاً تجتاز فيه عناءها وصعابها، وتدلف منه مباشرةً إلى أفق المجد الأوّل الذي ينتظرك على بواباته العالم:

---

[39] إقبال، محمد، ديوان ماذا نفعل يا أمم الشرق، نظم الصاوي شعلان، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج 2، ص 361.
[40] الأبيات من نظم محمد حبش، وهي في سياق ما كتبه إقبال في ديوانه الأسرار والرموز، انظر: ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 1، ص 132.

منـــــذ أن ثـــــارت فرنســـــا بـــــدأ الغـــــرب العراكـــــا
لـــــم تعـــــد تبصـــــر فيهـــــا بعـــــده إلا ارتباكـــــاً

أصـــــبحت منـــــه هبـــــاء عصـــــمة البابـــــا العجـــــوز
واســـــتفاق الغـــــرب لايعـــــرف شـــــيئاً لا يجـــــوز

هـــــي ذي رومـــــا التـــــي شـــــاخت علـــــى العهـــــد القـــــديم
تحتســـــي خمـــــراً جديـــــداً معهـــــا البابـــــا نـــــديم

فـــــي فـــــؤاد المســـــلم اليـــــوم كهـــــذا الغليـــــان
هـــــو ســـــرّ الله عـــــن تبيانـــــه كـــــلّ اللســـــان

فـــــارقبوا مـــــن ذلـــــك الواثـــــب فـــــي بحرالفضـــــاء
وارقبـــــوا الكـــــوب الـــــذي يختـــــاره مـــــاء الســـــماء**[41]

وفي ديوانه الأخير (أرمغان حجاز)، ومعناه هدية المسافر إلى الحجاز، يعيد إقبال مناقشة واقع السقوط الإسلامي وسبل القيام والنهضة، فيشرح ذلك عبر مؤتمر إبليس، وفيه يفترض أن إبليس جمع عتاولته ودهاقنته في مؤتمر حاشد، واستمع منهم إلى برامجهم الكثيفة في تدمير المجتمع الإسلامي، واستمع إلى عرض تفصيلي لتعاقدهم مع جهات متخصّصة في الغرب والشرق بهدف القضاء على الإسلام.

وفي رواية إقبال إن إبليس يختتم مؤتمرهم بكلمة جامعة، يكشف فيها أن السبيل الكفيلة بتحطيم المسلمين هي الانهيار من الداخل، وصرف أبصار المسلمين عن حقائق القوّة والعلم في دينهم إلى أوهام الاستسلام والخضوع، وأن السبيل الأسرع للانهيار هو إشغال المسلمين بجدل التراث وصراعاته، وإشعال الحروب الكلامية واللاهوتية والجدلية بين المسلمين، وهذا ما سيعيد الصراع جذعاً بين السنّة والشيعة والصوفية والسلفية، ولا أظنّ أن إبليس قد قصد أكثر من هذه الحرب الطائفية بين السنّة والشيعة، التي يصطلي بها الشرق الأوسط منذ أربعين عاماً بلا توقّف!

---

[41] ديوان جناح جبريل ، محمد إقبال، نظم زهير ظاظا، وهو في ديوان إقبال، ج2، ص 480.

سُلُّـــوا عليهـــم عتمـــة التأويـــل فـــي صبـــح الكتـــاب
وخذوهـــم حتـــى الممـــات مـــن الســـؤال إلـــى الجـــواب

قولـــوا لهـــم: مـــات المســـيح ؟ أم إنـــه حـــيّ لديـــه؟
إن مـــات مـــن قبـــل الصعـــود ففيـــم أصعـــده إليـــه؟

أو كـــان حيّـــاً فـــي السمـــاء فهـــل يعـــود بـــه القـــدر؟
أم أنـــه سيحـــلّ فـــي شـــخص الإمـــام المنتظـــر؟

أم ليـــس هـــذا مـــا يكـــون وإنمـــا الـــرأي الصحيـــح
فـــي أن يقـــوم مجـــدّد فـــي مثـــل أوصـــاف المسيـــح

وتـــراه إن عـــاد المســـيح كمـــا نقـــول فمـــا يقـــول؟
هـــل يتـــرك الإنجيـــل للقـــرآن أم بهمـــا يصـــول؟

قومـــوا أبالســـة التـــراب!! وخـــذوا الســـؤال مـــن الجـــواب
ولينحتـــوا أصنـــامهـــم مـــن ذات آيـــات الكتـــاب

سلّـــوا عليهـــم سيفهـــم وخذوهـــم بالديـــن نفســـه
ولـــد ابـــن آدم فـــي الـــورى والسـيف مغـــروز برأســـه!**[42]

ومن المؤكّد أن إقبال كانت تؤلمه تلك الصراعات التي انفجرت في شمال الهند عقب قيام الحركة القاديانية، بإعلان مواقفها الجدلية حول عودة المسيح والنبوّة الجديدة، والجدل الصاخب في تفسير آيات القرآن الكريم حول السيّد المسيح، وهي تأويلات وجدالات وعناد يكفي لتفتيت أمّة كاملة، وإغراقها بجدل الماضي، دون أن يتقدّم بالأمة خطوة واحدة إلى الأمام.

---

[42] الأبيات ترجمها نثراً عبد الوهاب عزام، وهي في ديوان إقبال الأعمال الكاملة، ج 2، ص 517. والنظم هنا للشاعر زهير ظاظا لم يُطبع، وأحتفظ بنسخة مخطوطة منه.

إنها إذاً السقوط من الداخل، اتركوهم يقرؤون خالد النصوص ورائعها، ولكن أغرقوهم في طيّات اللفظ وإعجاز العبارة، وخذوهم إلى تأويل يفقدون فيه مقاصد النصوص ويرتطمون بحوافها، ويعيشون عبث الجدل الذي لا ينتهي، ويحشدون له رجالاً وخصومات ومعارك.

أيُّ فراغ رهيب ذلك الذي يشهده العالم الإسلامي بعد أن ذهب المسلم إلى جدل اللاهوت، وانخرط في خصومات واصطفافات لا معنى لها في وثوب أو قيام.

ويلتفت إقبال إلى العالم الإسلامي الحائر في نهضته وعثاره، ويرفع صوته آهات حرّى؛ نريد مكاناً للمسلم، موقع بين زحام الأمم، أعطونا أرضاً وفرصةً وسندهش العالم بالعجائب، هكذا كان إقبال يراهن على المارد الإسلامي المتلظي خلف وهم سحائبه وذكرياته:

المنبر اليوم والمحراب قد فرغا ... من صيحة الحقّ أم من صرخة السحرِ
أين الأذان الذي كانت تميد له ... صمّ الجبال وأين الصعق في السور؟

طوفت في أمة الصحراء أسألها ... فإذ بها أمّة الصحراء في خور
رأيتهم في سجود لا اتجاه له ** ... وما له في وجوه القوم من أثر[43]

لقد حان وقت القيام، كلّ شيء سيتغير في هذا العالم، وستكتب الكهرباء شكلاً جديداً للعالم، لقد عقدت شبكات الحديد ما بين قارّات العالم، وبدا الإنسان يركب الفضاء، فأين يختبئ أبطال الحرية والكرامة الذين ملأوا الهند بسالة وتضحية وفداء، وبعثوا رونق حدائقها زهوراً وطيوراً وجمالاً، ولماذا لا ينهض السلطان بابر، أو السلطان أورنك زيب، من جديد، يعيد إلى هذه القارة الهندية التائهة رشدها، ولماذا لا يشرق في العالم الإسلامي هارون رشيد أو معتصم جديد؟ نحن من منح هذا العالم نكهته ورحيقه عشرة قرون متتالية، فلماذا ننام اليوم وهم يقتسمون تراث الأمم، ويشيدون العالم الجديد، لماذا نكون مفعولاً به منصوباً وقع عليه فعل الفاعل، ولم لا نكون الفاعل المرفوع، ولماذا أصبحنا الخبر المكرّر ولم نعد المبتدأ المصدَّر كما كنا خلال تاريخنا المجيد:

---

[43] إقبال، محمد، ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 461.

أيهـــا الســـاقي لقـــد قـــام الغفـــاة ثـورة فـي كـل شـيء فـي الحيـاة
ذرة لـــم تخـــلُ مـــن عاصـــفة أيهـا الساقي خـذ الكـاس وهـات

نهبـــــت خيراتنـــــا أجمعهـــــا لـــم نعـــد ننفـــع شـــيئاً للعبـــاد
أيّ عـــين قـــد أصـــابت ركبنـــا ** جعلتـــه هائمـــاً فـــي كـــلّ واد

فتنـــة فـــي القلـــب قـــد أودت بنـــا نحـــن أبنـــاء أطبـــاء القلـــوب
أيـــن فـــي وديانـــا المـــاء الـــذي قبـــل أحيينـــا بـــه روح الشـــعوب

لـــم لا ينطلـــق التـــوق الـــذي يـوقظ الجـذوة فـي صـدر الحـرم
حجـــب غطـــت عيـــون المـــؤمنين ** أن تـرى زمـزم قـرب الملتـزم[44]

إنها صرخات إقبال، وفيها روح العرب وفلسفة الهند. يهتف للمسلم الواقف على عتبات عصر جديد، يطالبه بإعادة إنتاج العالم من جديد، فهو جوهر العالم وروح الوجود، وهو من يتقدّم في الملأ الأعلى والملأ الأدنى، ورسالته إعادة الاعتبار إلى روح هذا العالم، مكاناً للحب لا للحرب، وللإشراق لا للإخفاق؛ إنها اللحظة التي يجب فيها اقتحام المشهد النائه، وإعادته إلى اعتباره يوم قدمه الله للملائكة سيّداً مطاعاً تسجد له الأملاك، وتنتظر قدومه الأفلاك، وتختاره الأمم سيداً مطاعاً.

[44] إقبال، محمد، ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، دار ابن كثير، ج2، ص 412.

أيّهـــــا المســـــلم فارقـــــب نظـــــرة الـــــدنيا إليـــــك
فـــــي مـــــلاء مـــــن رجـــــاء يعقـــــد العـــــزم عليـــــك

زفرتـــــي تضـــــرم صـــــدري وأنـــــا بـــــين الســـــيوف
غيـــــر أن القـــــول مـــــن خشـــــيته يرجـــــو الوقـــــوف

أنـــــا مـــــن كثـــــرة مـــــا حلقـــــت ألهبـــــت النـــــواحي
فلـــــو اجتـــــزت قلـــــيلاً ** أحـــــرق النـــــور جنـــــاحي [45]

إنها حكاية القيام بمجد الذات؛ لن يفيدنا شيئاً اللهاث وراء الأمم، لقد بعثنا المجد في التاريخ من أعماق ذاتنا، ولم نكن محض أجرام سماوية تائهة تعكس نور الشمس، لقد كنّا نحن الشمس، ومن لهيبنا كان هذا العالم ينال دفئه، لم نكن قوارير يملؤها التجار بالماء سلعةً في أسواق الدرهم، لقد كنّا نحن العين والمنبع، ومن أنهارنا كان هذا العالم يشرب ويرتوي، ويجد طعم الحياة، وكان ماؤنا يسوحُ في الأرض كلأ مباحاً وريّاً عذاباً يرتوي منه العالم.

هـــي النَّـــارُ الجديـــدةُ لـــيس يُلقـــى لهـــا حطـــبٌ ســـوى المَجْـــدِ القديـــمِ
خُـــذوا إيمـــانَ إبـــراهيمَ تَنْبُـــتْ لكـــم فـــي النـــار رَوضـــاتُ النَّعيـــمِ

ويـــذكُو مـــن دمِ الشهـــداء وَرْدٌ سَـــنِيُّ العِطـــر قُدســـيُّ النَّسيـــمِ
ويلمـــعُ فـــي ســـماء الكـــون لـــونٌ * مـــن العُنَّـــاب مخضـــوبُ الأديـــمِ [46]

ولعل من أروع ما خلده إقبال وصيته لابنه جاويد؛ حيث توجّه له بأشدّ الكلام عاطفةً وصدقاً، وسكب له في كلمات دافئة أدقّ ما تعلمه من درس الحياة بوصفه شاعراً ثائراً هائماً بحضارته، يؤمن تماماً بقدرة الإنسان على التغيير، وقدرة الحياة على العطاء.

---

[45] ديوان جناح إقبال، طبع دار إقبال، نظم زهير ظاظا، ص 5.
[46] النجار، فهمي، محمد إقبال وصلته الثقافية بالعالم العربي، ص 284.

أبنـــيّ لحـــن الـــذات فـــي أعماقنـــا بَـــاق يـــدلّ علـــى خلـــود حياتـــه
أبنـــيّ ليـــل الشـــعب لـــيس يضـــيئه إلا تصـــــليه بشـــــعلة ذاتـــــه

أبنـــيّ لـــن يصـــل الغـــراب لعشـــنا مهمـــا اســـتطالت فـــي الســـماء قـــواه
هـــذي الشـــواهين التـــي يلهـــو بهـــا ** أبنـــــاء ســـــيّده الـــــذي ربّـــــاه[47]

وفي التفاتة آسرة يتوجّه إقبال إلى ابنه جاويد، ويخصّه بالكلمات التي ينبغي أن يسمعها كلّ أبناء الجيل الذين يغنّون لإقبال، ويترنّمون بكلماته، ويعيشون إشراقه:

أبنـــي صـــن بالحـــب وجهـــك عاليـــاً مـــا فـــي زمانـــك مـــن يصـــون حيـــاءه
إيّـــــاك أن يـــــأتي لقبـــــري زائـــــر ويقـــول لـــي جاويـــد يبـــذل مـــاءه

إقبـــال مـــا رضـــي الترهّـــب ســـيرة لنقـــاء فطرتـــه وخصـــب فـــؤاده
أبنـــي لـــيس بنـــيّ إلا مـــن روى ** بقصـــيدتي هـــذي جميـــع بـــلاده[48]

[47] الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 504.
[48] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إقبال وحضارة الهند

كان جدل الهند طاحناً مطلع القرن العشرين، ولم يكن بوسع أحد أن يقول إلى أين تذهب هذه القارّة الهائلة، وكانت بريطانيا، التي تريد ألا تغرب عنها الشمس، في جدل مع حريّات الشعوب الثائرة، فأيُّ نظام ذلك الذي سيكتب تاريخ الهند الجديد، وكيف ستمضي سفينة المستقبل في بحر الهند الطامي، وأين هو موقع المسلمين فيها؟

إقبال تقلقه تلك الأسئلة العاصفة، وهي لا تختلف في شيء عن أسئلة العالم الإسلامي في كلّ مكان، لقد كانت اللحظة للتاريخ والمستقبل، لقد عصف الإنكليزي بمجد الأباطرة المسلمين، وأصبح أورنك زيب وشاه جهان وبابر مجرّد قبور ومزارات، ولم تعد جيوشهم تنشر الحياة، وتفرض الأمن في السند والبنجاب وأسام وكوجارات وبيهار وراجستان، وأعلن العصر الجديد نهاية عصر السلالات وبدء عصر الديمقراطيات، وبات الاستبداد يمسك بشراعه في مواجهة الريح العاتية، وبريطانيا تصرخ بمكر ستنتحرون حين أرحل!! وأمام هذا المشهد الهائل نحتاج الإرادة والصمود.

المسلم روح الهند ونكهتها الحضارية؛ هو روحها التي عصفت بالشرق، الذي طالما ارتوى من كفّ محمود وإياز،[49] وحدائق الهند العظيمة التي كُتبت فيها أعذب أغاني العشق والجمال، وغاباتها التي تزاحم بأكتاف الفيلة، وتاريخها ما بين أباطرتها العظام

[49] يكثر إقبال من الإشارة إلى محمود وإياز، ويقصد بمحمود الغزنوي فاتح الهند (970-1030م)، وهو رمز لقوة المسلمين ونجاحاتهم في الهند؛ أمّا إياز، فهو غلام أسود كان الغزنوي يقربه ويعجب بذكائه وفطنته، ومراد إقبال هو الإشارة إلى الثقة والإرادة التي منحها الإسلام لهذا الغلام الأسود حتى صار جليس الملوك وصاحب شوراهم.

بابر وأكبر وأورنك[50] زيب يعكس صراع التاريخ والجغرافيا، ويرسم ملامح الوطن الجديد الذي ينبغي أن تنهض فيه إرادة المسلم في صورة إحياء جديد للعالم المضطرم.

وفي موقف يكشف عن مجد الهند وحقّها في المشهد العالمي، يخاطب إقبال هماليا:

هماليا ... ونهر الكنج إني ... أرى صور الحياة بغير معنى
فلم أدرك لها في الذوق رأياً * ... ولم أعرف لها في الحسن لوناً

شعوب الشرق والغرب استقلت ... وضاق بنا على الأرض الفضاء
فللأغيار ثروتنا متاع ... ومن لبناتنا لهم البناء

فأين حياتنا والغير فيها ... يصول كما يشاء ويستطيل
وليس النوم ما صرنا إليه ... فذاك الموت ... لا النوم الثقيل[51]

ومن المؤسف أن إقبال مات عام (1938)؛ أي قبل أن ترى باكستان النور بتسع سنين، وعلى الرغم من أن إقبال طالب دوماً بحضور المسلم في الهند، ولكن من العسير أن نستخلص من مواقفه خريطة للمستقبل السياسي للهند التي يريد، فقد قام الرجل ببثّ الحياة والأمل، ولم ينصّب نفسه رئيس حزب سياسي.

ولا شكّ في أن أشعاره اللاهبة بثت الروح في المسلم الهندي، ولكن من يتأمّل فيها يجد أنها كانت موجّهة للمسلم؛ لدفعه في الإسهام والبناء في الحوض الهندي كله، باعتباره أكبر حوض بشري في العالم، وباعتباره أغنى بقاع العالم حضارةً وتنوعاً، ومن الممكن أن يكون للمسلم فيه دور الريادة والقيادة كما كان خلال التاريخ، منذ أيام محمود الغزنوي إلى الدولة الإسلامية المنغولية التي حكمت الهند باقتدار أربعة قرون.

وفي مقاربة سياسية قدّمها في (أرمغان حجاز) يتحدث عن بؤس التحول إلى الدساتير الغربية دون وعي بما في الهند من روح إسلامية بنّاءة لا يمكن تغييبها بوجه من الوجوه، ويؤلمه الاضطهاد الذي كابده المسلم في هذا التحوّل الأبله، الذي يستدبر الإيمان، ويريد إقامة هند بلا روح ولا تاريخ ولا يقين:

---

[50] بابك وأكبر وأورنك زيب ثلاثة من أباطرة المغول الذين حكموا الهند، وكانوا رمزاً لقوة المسلمين وبأسهم وعدالتهم: بابر (1526-1530) وأكبر (1556-1605) وأورنك زيب (1658-1707).

[51] الأبيات من ديوان ضرب الكليم، نظم عبد الوهاب عزام، وهي في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج2، ص 371.

أنّـى وقفـت علـى سـيف مـررت بـه ... وجدتـــه بـــدم الإســـلام مختضـــبا
لـو أنهـا الهنـد كانـت وحـدها ألمـي ... لكنـت أوجـدت لـي فـي حملـه سـببا
هـــاهم يبيعـــون للأوغـــاد أنفســـهم ... ويرقصـــون علـــى أنغـــامهم طربـــا
فـلا اسـتطاعوا يكـون الشـرع حـاكمهم ... ولا اسـتطاعوا إلـى الدسـتور منقلبـا[52]

****

كانـت رؤيتـه واضـحة لا يمكـن لمئتـي مليـون إنسـان يعتقـدون الإسـلام فـي روحهـم وضمائرهم، وقد قادوا الهند بكفاءة واقتدار، أن يضعوا جانباً هذه القوّة الهائلة للدخول في النادي الدستوري الجديد، الذي يُقدّ على قياس بريطانيا.... الهند شيء آخر!! الدين هنا ليس ثقافة تكميلية يأخذها من شاء وينبذها من شاء؛ إنه هنا روح الهند وتاريخها وعنفوانها وأسرارها، وكلّ محاولة لبناء دستور علماني يتعالى على قيم الأديان لن تؤتي أيّ ثمرة أو نتيجة، وستكرّس ظلماً عميقاً يعانيه كل متديّن، ولكنه في الحالة الإسلامية سيورّث انفجاراً وصخباً لا تتسع له سماء هذا الكوكب!!.

ولكن التجافي عن الأديان كلّها أقلّ سوءاً من هندسة الهند وتهميش الإسلام، فالمسلمون هنا ليسوا ضيوفاً طارئين؛ إنهم سدى الهند وترابها ولحمتها؛ إنهم عشرة قرون من التدافع الحضاري الممتد من لاهور إلى كيرالا، آثاره ونفحاته تنطق بها كلّ بساتين الهند، وحكمتها وفلسفتها، وشعراؤها.

لقد أصبح اليوم مسلمو الهند أزيد من ستمئة مليون، ولا ندري على وجه التحديد كيف سيبدو العالم لو بقي هؤلاء في روح القارة الهندية، ولن أخوض الجدل التقليدي هنا حول الحكمة من تقسيم الهند، وبحسبي أن أقول إن إقبال كان داعية إلى القوة الإسلامية والسلطان الإسلامي في الهند على أساس من العدل والاحترام والإيمان بالحضارة الإسلامية الراسخة والحضارات الفلسفية الأخرى.

محمود الغزنوي

---

[52] الأبيات من ديوان ضرب الكليم، نظم عبد الوهاب عزام، وهي في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج2، ص 322.

يحتلّ محمود الغزنوي منزلةً عالية في ضمير إقبال؛ فهو رمز قوة الإسلام وانتشاره وبأسه، ودخوله إلى الهند كان تغييراً شاملاً في تاريخ القارّة العميقة، وكان يرى دخوله عمق الهند هو الجواب الحقيقي لشعوذة السحر البرهمي في القارة العميقة، واستيقاظ الآمال بحريّة الإنسان وكرامته، وثورة المنبوذين في وجه التصورات الهندوسية التي تجعل الناس بعضهم لبعض عبيداً، وتمنع شمس الحرية أن تسطع في المحرومين.

ويشير إقبال إلى موقف الغزنوي في رفض تماثيل الذهب التي وجدها في كنوز المهراجا[53] الهنود، وعلم أنّ أيّ انصياع لرغائب الدنيا في التماس هذه الكنوز هو مصالحة مع الأصنام:

لما أراد الغزنوي يحطم الصنم الكبير
حملوا له الياقوت في سدر الحرير

فرمى بما جمعوه في بحر وبدده جميعه
وأبى وقال أمام محفلهم جميعه

فلأن أُسمَّى هادمَ الأصنام خير في السلوك
من أن أُسمّى بائع الأصنام من بين الملوك**[54]

والمعنى نفسه في نظم الصاوي شعلان:

كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لصاغها * كنزاً وصاغ الحلي والدينارا[55]

[53] المهراجا اسم ملوك الهند قبل دخول المسلمين إليها.
[54] الأبيات من ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهي في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج 1، ص 422.
[55] نظم الصاوي شعلان، صلصلة الجرس، ديوان إقبال، ج 1، ص 95.

في حضارة أوربّا

لم تستطع أوربّا اللاهية ببريقها الفتّان أن تسلب لبّ الشاعر، كانت عيناه الحاذقتان تكشفان مباشرة ما تحت البريق من زيف، وكان يؤمن بأن عالمه الشرقي سحر جميل، لن تفهمه خطوط الحديد وأسلام الكهرباء، وأن الحضارة الإسلامية كانت تزرع السنابل في حواضر الغرب، وأن رسالته الحقيقية هناك في أرض البنجاب التي تفيض لبناً وعسلاً؛ حيث يعيش مئتا مليون مسلم في القارة العجيبة، وأن حقّهم في النهضة والقيام أكيد ومشروع، وعليه أن يعمل لبعث إرادة الحياة في شعب يوشك أن يستسلم للموت.

طاف إقبال معالم الحضارة الغربية، ولم يكن يتوقف عند ظواهرها وبريقها؛ لقد كان في جدل عنيف مع الجوهر العميق لهذه الحضارة، وكانت دراساته الفلسفية تأخذ عليه وجوده كلّه، لقد كان مدهشاً أن تتعرف إلى فولتيير وغوته وجان جاك روسو وأعمدة القيام الأوربّي، وهي لحظة دهشة وسحر.

كانت دهشته في قراءة الحضارة الغربية كبيرة وصادمة، لكنه كان يمتلك مخزوناً كافياً للتوازن من حضارته وسحره الشرقي.

رأيت فلاسفة بالألوف ** رؤوسهم تحت أطمارها
وذو الوحي يكشف عن رأسه ** ويهتك أستار أسرارها[56]

وفي قراءته لحضارة الغرب وفاتنات أوربا يُظهر إقبال ترفعاً غير عادي على حضارة تُختصر بناطحات السحاب، ويعلن تماماً أنه يمتلك من الوعي الحضاري ما لا تعرفه حضارة الآلات:

بريق الحضارة أوج الترف ** لدى الغرب لم تستطع فتنتي
أنا ابن المدينة ابن النجف ** غبارهما كان في مقلتي
غبارهما قطرة للعيون ** وأنفع طب لذي علة

[56] ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وهو في ديوان إقبال باعتناء الغوري، عبد الماجد، ج2، ص 437.

مقـيم بـرغم ريـــــاح القـرون ** ومـا كـان مـن مستـــبد عتـي[57]

ترفّع إقبـال عـن التقليـد الأعمـى للغـرب، وأصـرّ علـى التفـوّق الشـرقي السـاحر علـى المجتمعات المادية الصاخبة بالسكك الحديدية والكهرباء ودخان المصانع، ولكن ذلك كلّه لم يكن يعني له الرضا عن هموم الأمة وسباتها، ولم يكن ليسلّمه إلى سبات ساذج، لقد أعلن مشواره الإصلاحي في داخل البيت الشرقي الإسلامي:

كـــلّ مـــن أهمـــل ذاتيتـــــــه فهـو أولـى النـاس طـراً بالفنـاء
لـــن يـــرى فـــي الـــدهر قوميتـــه **** كـلّ مـن قلـد عـيش الغربـاء[58]

ويخوض إقبال حواراً عميقاً مع المشهد المرعب في أوربا في أعقاب صراع تاريخي مرير بين الكنيسة والقصر، لقد بدا أن القصر قد حسم المشهد لصالحه، ولكن من المؤلم أن يكون الثمن هو الإنسان، الذي تحول في عالم الصراع هذا إلى سلعة يتاجر فيها الكبار، وهو على وشك أن يزجّ به من جديد وقوداً لحروب جديدة، ولعلّها من نبوءات إقبال التي لم تتأخّر أبداً.

رأس الكنيســة فــي الوداعــة غــارق والقصــر فــوق النــاس يرفــع أنفــه
تنـــوي المضـــي فيســـتبد أمامهـــا وتريـــد تلعنـــه فتمشـــي خلفـــه

هــذا التنــاقض كيــف يمكــن فهمــه سبحانـــــك اللهـــم ربّ الـــــنار
مـــا للكنـــائس والقصـــور وســـيلة فـــي النـــاس غيـــر تبـــادل الأدوار

فصــلوا عــن الــدين السياســة بعــدما وصـــلوا بفتنـــتهم إلـــى التيجـــان
وتطـــاول البابـــا فقيـــل لـــه اســـترح ** أصـــبحت ســـلطاناً بـــلا ســـلطان [59]

---

[57] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[58] إبراهيم، سميح عبد الحميد، الأدب الأوردي الإسلامي، ص 15.
[59] الأبيات من ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 505.

إنها باختصار حكاية الصراع بين الدين والكنيسة الذي طبع أوربا ألف عام، وانتهى بها إلى حروب من جحيم لا تنطفئ حتى تشتعل، ولا تخمد حتى تثور، ولا يزال قادة الحروب يرفعون على ظهورهم شعارات الشعب الغاضب، فتريد الكنيسة أن تثأر لإيمانه ويريد الملوك أن يثأروا لأمنه، ولكنه في الحالتين صريع أطماعهم وبطشهم، ولا يعود عليه من نار حروبهم إلا الخيبة:

وتلفّت الشعب الجريح فلم يجد حظاً له من ذلك التغيير
كانت مصالح راهب ومتوّج صارت مصالح حاكم ووزير

لن تعرف الناس السلامة ساعة ما لم تفقْ من حمق هذا الداء
هي لعنة الدنيا كما أفضى لنا ** بالسرّ هذا سيّد الصحراء[60]

[60] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إقبال والإصلاح الديني:

يعرف إقبال في العالم الإسلامي شاعراً ثائراً، وربّما سياسياً لامعاً، وكذلك فيلسوفاً متيناً، ولكن الجانب الأكثر إثارةً في شخصية إقبال، من وجهة نظري، هو رسالته في الإصلاح الديني.

وقد كتب إقبال طويلاً في الدين، ولا شكّ في أنّ تأملاته في التوحيد والزمان والمكان جديدة وفريدة، وتتضمن بذور ثورة عميقة في الفكر الديني؛ لا تتوقف عند الاجتهاد في الأحكام؛ بل تتصل بالعقيدة والشريعة جميعاً، وتتأكد، بوجه خاص، في إيقاظ رسالة الإرادة ورفض سلطان القدر.

وفي مطالعة احميدة النيفر قال: «ولقد ظلّ عموم فكر إقبال مهجوراً في الحراك العربي الإسلامي الحديث لعقود متوالية، خلافاً لما أنتجه من شعر، وكان أشدّ ما لقيه هذا الفكر من إعراض متعيّناً في مقاربات إقبال القرآنية.

أفضل نموذج يمكن تقديمه في هذا الصدد هو قراءته قصّةَ "هبوط" آدم الواردة في القرآن الكريم. لقد اتجه بهذا "الهبوط" وجهة مغايرة لما ساد لدى عموم المفسرين المسلمين، ولما تواتر من شروح لسفر التكوين في نصوص العهد القديم الخاصّة بهذا الخروج، ولم يرى إقبال أنّ الموضوع متعلّق بطرد أو انتقال مكاني خرج به الآدمي من عالَم إلى عالم آخر، بقدر ما رأى أنّ فيه تحوّلاً في الذات الإنسانية وفي وعيها.

هذا التحوّل عند إقبال هو بدايةُ نشوء الذّات الحرّة عن رغبة ورضا، وهو تجسيد للفعل الإنساني القائم على حرّية الاختيار، إنّه الإعلان عن بروز ذات متناهية لها القدرة على أن تختار»[61].

ويقدّم إقبال موقفه في الوعي بالإسلام رسالة نهضة وقيام، يتجاوز هرمينوطيقا النص إلى غاياته ومقاصده، فلا يعنيه ما نسج الشارحون حول النصوص القديمة؛ بل يدعو إلى فهم مختلف يستخرج فيه من النصوص مقاصدها، ومن الشعائر معانيها، ثم لا يبالي، بعدئذٍ، سخط الفقيه، ولا رضاه.

«فكلمة خودي، التي كانت في الفارسية تعبيراً عن الخالق المطلق الذي تنمحي في مقابله الذات صيّرها إقبال وعياً بتحرّر الذات من كلّ قيد، وهو معنى لا إله، التي هي أكثر العبارات جرأةً وإقداماً وتهوراً، وحين يُضاف إليها تتمّة الشهادة، إلّا الله، فهي تأكيد للحقيقة الأولى، وهي توثّب الذات وقيامها وتحرّرها عبر عالم من الوصال في الله ونوره وإشراقه.

وكلمة الفقر التي كانت مجداً في مدارس الفقهاء أعاد إقبال تشكيلها مبتكراً مصطلح السيطرة الأخلاقية، وكلمة المؤمن لا تعني أكثر من الإنسان الرسالي المثالي في أيّ أمة، وكلمة الكعبة والحرم تعني الهدف السامي، وكلمة السجود تعني الجهد العنيف والصلاة تعني الرغبة الحارقة، والأذان يعني الدعوة الى العمل»[62].

إنها قراءة مقاصدية للإسلام، لا تنحبس في زمان غابر، ولا نصوص شارح عاثر؛ إنها روح الشريعة ومراميها ومقاصدها التي يمكن أن تشرق في كلّ عصر جديد وأرض جديدة.

ولقد تأثّر كفاح إقبال، في التجديد الديني، بقادة التنوير في الإسلام في مدرسة الرأي والعقل، وعلى رأسهم أبو حنيفة، واعتبر في سياقه ابن سينا والفارابي وابن رشد، وقد كتب عنهم بتفصيل سنأتي عليه، ولكنّه تأثر بشكل بالغ بعدد من فلاسفة الغرب التنويريين والحداثيين، وعلى رأسهم إمانويل كانط (Immanuel Kant) ونيتشه (Nietzsche).

---

[61] النيفر، احميدة، محمد إقبال والإنسية القرآنية، مقال نشره النيفر في مركز مؤمنون بلا حدود، تموز/ يوليو 2015.
[62] الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج1، ص 77.

وفي رسالته للدكتوراه، التي كانت بعنوان (الميتافيزيقا في إيران)، لم يأتِ إقبال على ذكر نيتشه، ولكنه في كتابه التالي (تجديد التفكير الديني في الإسلام) ذكره ستّ عشرة مرة، وبشكل خاص في فكرتي العود المتواصل والعود الأبدي، ومبدأ الخلود.

ومع أن جدله عند نيتشه كان يتصل بموقف نيتشه في مسألة السوبرمان والإنسان الأعلى، لكن الجانب الأكثر إثارة وأهمية كان موقفه من نيتشه في جدل الأديان والحقائق الغيبية.

لقد أسر نيتشه إقبال بنظريته الغاضبة على الكهنوت. وفي الواقع، إن نيتشه، الذي يُصنّف عادةً أنه من أكثر الملحدين عتواً في الأرض، لا بدّ أن يُذكر أيضاً بوصفه تقيّاً مسيحيّاً، أو على الأقل راهباً زرداشتيّاً، ولا يجب أن نتوقع كثيراً من المنطقية في هذا الجدل؛ فالرجل لم يزعم نفسه منطقياً على الإطلاق، وقد كتب شعره في زرداشت غاضباً ساخراً مستفزاً، ثم دخل من فوره إلى مستشفى الأمراض العقلية؛ حيث أمضى نحو عشرة أعوام بين عنابر مستشفى المجانين.

ولكن الصراع في الوقائع لم يكن بين نيتشه وبين الله، إنّما كان بين نيتشه وبين الكهنوت، وبشكل خاص الأخلاق الضعيفة التي تعلّمها الكنيسة؛ من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الايسر، وإذا أخذ رداءك فأعطه إزارك...

لقد صرخ الرجل إن أخلاقاً كهذه ستدمّر ألمانيا، التي يطالبها جيرانها بالتواضع والخضوع؛ فألمانيا هي بلاد المجد الحضاري الأوربي، وهي الإمبراطورية المقدّسة منذ ألف عام، وعلى العالم أن يتقبّل التفوّق الألماني والتاريخ الألماني، ولا بدّ من أن تكون ألمانيا فوق الجميع، وهذا هو مكانها وتاريخها وقيامها عبر التاريخ.

لقد اقتبس إقبال القوّة من نيتشه، ولم ينظر إلى الفيلسوف الهائج على أنه محض زنديق مرتد؛ بل نظر إليه على أنه ثائر على الخنوع الديني الذي كان سمة الكنيسة في أوربا، وكان في الوقت إيّاه سمة التصوّف الإسلامي في الشرق.

> وعلى الرغم من الحياة الصاخبة المضطرمة للفيلسوف نيتشه، وتناوسه المتكرر بين الجبل والمدينة ومستشفى المجانين، لم يكن إقبال يرى أنه كان كافياً لرسم ملامح الثورة الهادرة التي يريد، فقد كان يريد مزيداً من غضبه، لكنه في الوقت نفسه لا يريد انتحاره وجنونه!

من هذا الجانب، وجد إقبال في نيتشه تجربة تناسب مشروعه في الدعوة إلى قيام المسلم الجديد سوبرماناً جباراً يكرّر رسالته التاريخية المجيدة، ويدعو إلى مجد جديد على ملامح ما أنجزه المسلم في تاريخه الطويل.

ومع أن همَّ إقبال في إصلاح المؤسسة الدينية همٌّ داخلي بكل تأكيد، وأن إقبال كان يتطلع إلى إصلاح الخطاب الديني وليس تدميره كما فعل نيتشه، وهذا ما أفردنا له فصلاً خاصّاً، لكنه بالتأكيد تمكن من قراءة الجانب الملتهب في نيتشه قراءةً متوازنة، ونجح أن ينقله إلى الحاجة المحلية، وأن يصرفه من إعصار هائج مدمر إلى نسيم يعيد الحياة إلى المؤسسة الروحية في الإسلام.

ومع أن الحديث عن إقبال يتخذ دوماً طابع الدهشة بشعره وصوره وموسيقاه، ولكن هذه الدراسة معنية بشكل خاص بمشروعه التنويري الذي أطلقه في الإصلاح الديني.

ومن المؤكد أن كتاباته وقصائده ومشاريعه كانت تهدف إلى تحقيق إصلاح عميق في بنية التفكير الديني، وقد يقتضي ذلك أن نكتب بلغة البحث الموضوعي ربّما على النسق الذي كتبه هو نفسه في كتابه الشهير (تجديد التفكير الديني في الإسلام)؛ حيث جعله تحليلاً عقلياً وموضوعياً صرفاً، ولم يورد فيه بيت شعر واحد!!

ولكن يبدو أنه من المستحيل أن نبتعد من عالم إقبال الإشراقي، ومن قراءاته الروحانية المتفقة، فهذا فحسب ما يليق بإقبال، ولا معنى لبحره دون أمواج، ولا معنى لنهره دون تدفّق، ولن نجني أيَّ متعة حين نقصد الريّ من هذا النهر المتدفق عبر قوارير مغلقة، مهما كانت باردة وأنيقة.

ولأجل ذلك، ستتولى هذه الصفحات التعريف بفكر إقبال في التنوير الديني خاصةً، ولكن ليس عبر المناقشة العقلية المحضة التي كتبها بعناية في حواراته مع شبنغلر وهاملتون جب، وإنما عبر شعره الثائر الذي يتحدى الحصون العتيقة، ويرمي بالأيقونات كلّها مرة واحدة، وهذا بالضبط ما جعله يختار لأيقوناته غضب الفيلسوف الألماني الهائل فريدريش نيتشه، وملهمه القديم زارا

(Zarathustra)[63]، الذي يؤمن بالحياة زنداً وغضباً وثورة ولهيباً، يقدس النار المقدسة في اشتعالها وتوقدها، ولا يحفظ أدنى احترام أو عطف للرماد البائس.
وفي تعبير شاعري ملهم يلخّص إقبال غضب نيتشه وثورته بقوله:
«لقد أسخطه ضعف عناصر الإنسان، وراح يخلق الإنسان مرةً أخرى في عالمه الناري الملتهب، وراح يحطّم ذلك الإنسان الواهن الذي خلقته الأخلاق المسيحية البائسة، فأثار بين الفرنج هياجاً بعد هياج: مجنون ولج مصانع الزجاج!!
لن تجد في قيثارته ألحان الاسترخاء، فليس في نايه إلا قصف الرعد، قد دفع مبضعه في قلب الغرب واحمرت يده من دم الصليب، هذا الذي بنى معبداً للصنم على قواعد الحرم، قد آمن قلبه وكفر دماغه!»[64].
وكتب إقبال للدكتور نيكلسون: «كل من حاول إثبات إفادتي من نيتشه فهو لا يعرف الحقيقة. إن نظريتي في الإنسان الكامل قد أبديتُها، وكتبتُ فيها قبل أن أعرف نيتشه بسنين طويلة، وقد سبق أن نشرت مقالاً في هذا الصدد منذ فترة طويلة، ثم ألحقته في رسالتي للدكتوراه عن تطوّر ما وراء الطبيعة في إيران عام (1908م). وأهم ما يفرق بيني وبين نيتشه، أن نيتشه لا يرى من الضروري أن تتصادم الذات في طريق تنميتها وارتقائها إلى القمة مع العوامل الخارجية، وأما عندي، فمن الضروري أن تحدث المعركة بين الذات وبين العوامل الخارجية، والسبب في ذلك أن نيتشه لا يرى من الضروري بقاء الإنسان، وأمّا أنا، فأقرّ بقاء الإنسان»[65].
لقد بدا واضحاً أن إقبال ينشد الغضب النيتشوي الهادر ليصنع منه السوبرمان الإسلامي، ولكنه يختلف عنه في وعيه بالتاريخ؛ فبينما يراه الأول ديالكتيك أصم، يراه إقبال جدلاً بصيراً لا بدّ من أن ينتهي بانتصار الإنسان.

في الفقرات الآتية سنحاول الاقتراب من مشروع إقبال التنويري الشجاع، وسنعترف مسبقاً بأننا لن نبسط نظرية متكاملة في التنوير بقدر ما نبسط أفكاراً وآراء جريئة ونبيلة ومتقدمة، وهذا هو في الواقع ما قصده إقبال، وهذا بالضبط ما مارسه أيضاً.

---

[63] نسج نيتشه فلسفته على لسان الحكيم زرداشت في موعظة الجبل، وعنوان كتابه (هكذا تكلم زرادشت)، ويسمى تخفيفاً زارا.
[64] عزام، عبد الوهاب، مجلة الرسالة، العدد 257، تاريخ 1938/6/6.
[65] عكاشة، رائد، ومع الجندي وخرمه، الفلسفة في الفكر الإسلامي، قراءة منهجية ومعرفية، ص 387، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2012.

وأؤكد أن ما سنقرؤه هنا من شجاعة وإقدام لم يكن ليمرَّ دون نقد شديد من سدنة الهيكل، الذين رأوا في كتابات إقبال هدماً للموروث وتطاولاً عليه، وقناعتي أن ما شفع لإقبال، ومكّن مشروعه من الاستمرار وكلماته من الوصول، هو أنه كان في ملعب الشعراء لا في ملعب الفقهاء، وقد اعتاد العقل الشعبي أن يغفر للشعراء ما لا يغفر لسواهم، وحين ستقرأ تأملاته الجريئة في ختم النبوة واستمرارها، ونصحبه في معراجه الروحي في شكواه إلى الله، وجواب الله على شكواه، واستفزازه المتعمّد لإسرافيل وفريق الملائكة، ستدرك، بيقين، أنه من المستحيل أن يكون من يحمل هذا الخطاب من أهل العمائم، وأن من المستحيل أن يقوم مجدّد تنويري بقول ذلك كله من دون أن تزاح العمامة من فوق رأسه، أو يزاح رأسه من تحت العمامة!

الثورة على الكهنوت

ليس سراً أن التجديد الديني هو في الجوهر صراع مع الكهنة، وقد حدد إقبال ثورته بوضوح، فهو ثائر في وجه الخرافة، وهو معني بمطاردتها في كورها ودورها، وليس سراً أن نقول إن الخرافة اعتادت التخفّي في عمائم الشيوخ والكهنة، الذين يبيعون تجارة الوهم للناس، ويتاجرون فيها.

وهذا الواقع ليس جديداً؛ بل هو جوهر الثورة التي خاضها الرسول الكريم في مشروعه النهضوي، فقد كانت مواجهته الحقيقية في الواقع مع السدنة والكهنة ورجال الدين الذين كانوا يدافعون عن الدين الوثني التقليدي، وكانوا يرون ثورته عدواناً على التقاليد الدينية الراسخة، وكانوا يرون أن مواجهته بكل الوسائل فريضة دينية يدفعهم إليها إخلاصهم وإيمانهم بدين إبراهيم، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يُراد.

إقبال كان يؤلمه الانحراف الكبير الذي يمارسه بعض رجال الدين من التجارة بالسحر والوهم والشعوذة، وقد دفعه هذا الموقف لاختيار رأي حادٍّ في رفض القدر بوصفه دعوة إلى الاستسلام والخنوع، وفي مواجهة ذلك كتب طويلاً، وربّما كان ما كتبه في القدر هو أشدّ الآراء جرأة ومواجهة ضد الكهنوت، فقد عدّ رجال الدين والكهنة تجار وهم، وأنهم

يسلمون الناس الى أقدارهم المهيضة ليبتزوا أموالهم بدلاً من دفعهم إلى التغيير ومواجهة الأقدار بشجاعة وبصيرة.

ولكنه ظلّ وفياً لأولئك الزاهدين الصالحين الذين اختاروا نمطاً بسيطاً للحياة، ولم يشاؤوا أن يزاحموا الناس في الثروات والدثور والقصور، ووجدوا في أكواخهم من الرضا ما تحسده عليهم قصور الملوك:

ذهب الدراويش الذين عهدتهم لا يأبهون لصارم ومهند

وبقيت في حرم يتاجر شيخه ** بوشاح فاطمة ومصحف أحمد [66]

ويمضي إقبال في ثورته على تجار الدين، ويواجه مباشرة أولئك الذين امتهنوا الدين حرفةً، وتحولوا عن الارتزاق بخدمة الناس الى الارتزاق بمخادعتهم وبيع الأوهام لهم.

وفي وقفة تأمّل أمام المدارس الدينية التي يفترض أن تكون أدوات رقي ونهضة، لكنها تحولت إلى قاعات همود وتقليد، وتحوّلت مناهجها التي ينتظر منها القيام والنهضة إلى مدارس تمجد الهمود، وتتحدث عن فضل الخمول والزهد والغياب عن الحياة؛ إنها ليست مدرسة محمد كما عرفها إقبال!

إن الجيل لا يزال يندفع طاقةً وطموحاً، ولكن هل تنهض مدارسه بطموحه هذا؟ أو أنها تعود به رماداً بلا لهيب؟

شبابنا لا ينقصهم الإخلاص، احترقوا من الإخلاص، نطحوا الجدار!!! إنما ينقصهم المنهج... أن يكون عناؤهم في سبيل قيام الأمّة وليس في سبيل همودها:

دم المسلم النور في دربه ومعجزة النور في حبه
ويعترف العصر أن الجمال نما وترعرع في قلبه

ولولا مدارس هذي الشيوخ وأحبار سوء ورهبانها
لروى المدينة مما ارتواه ** وأشرق بالحي بستانها[67]

---

[66] من ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجده في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج1، ص 403.
[67] ديوان جناح جبريل، ظهير ظاظا، وتجده في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج2، ص 429.

كان يؤلمه أن يرى الآمال الصاعدة لجيل آمل مفعم بالعطاء والرجاء يذهب راقصاً إلى مدارسه ومعاهده طافحاً بالأمل، لكنه يواجه الوجوه الكالحة البائسة لجيل خامل آفل، يطفئ جذوتها، ويقمع أحلامها، ويحيل لهيبها رماداً.

صغار الشواهين ما ذنبها هم علموها عناق الغبار
هم قتلوا الحب في صدرها هم أبدلوها بهذا الشنار

ترى النشأ يملأ وجه الطريق بروحات نِسر وغدْوات بازْ
ومفتي الدينة واد سحيق ** يتيه بمصطلحات الحجاز[68]

أين هي المدارس العظيمة التي كانت تبعث الروح في طلابها، وأين اختفت ملامح التوثّب التي كانت ترسمها ريشة العارفين على وجوه الجيل الناهض، أين هي مناهج بغداد وأصفهان وقرطبة وغرناطة، ولماذا لا نصوغ رحيقنا من تلك المناهل، ولماذا نكرّر الموت الذي ورثناه منذ قرون؟ ألا يوجد من يحمل الجذوة الأولى، ويبعث الحنين القديم إلى روضة الإبداع.

أنا لست أفهم هذي الكؤوس ويؤسفني مثل هذا اللجاج
ومن كان يحسن نحت الصخور ** ترفع عن أن يصوغ الزجاج[69]

ويسأله سائل يشرب كل يوم من كأس النخبة ويعيش في أبراجها: أليس الأولى بك يا أستاذ الحكمة والفلسفة أن تتفرغ للعمل الأكاديمي والبحث العلمي، وأن تترفّع عن منازلة المسائل المتصلة بالعامة، فهي لا تليق بك أيها الفيلسوف، ولكنه يلتفت في غضب ويقول:

فإلى متى صمتي وحولي أمة يلهو بها السلطان والدرويش
هذا بسبحته وذاك بسيفه ** وكلاهما ممّا نكدّ يعيش [70]

---

[68] ديوان جناح جبريل، ظهير ظاظا، وتجده في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج2، ص 429.
[69] الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج2، ص 430.
[70] ديوان جناح جبريل، ظهير ظاظا، وتجده في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج2، ص 411.

وفي موقف آخر يتحدث إقبال في جناح جبريل بلسان مريد ثائر على تقاليد السلوك وآداب الطريق، التي تحولت من كونها مدرسة تزكية وتطهير للقلوب إلى قهرمان ماكر تبتزّ فيه أحلام الضعفاء، ليتم بيعهم في سوق الوهم:

أنـــا مصـــباحي الـــذي أملكـــه شـمعة فـي قصـعة مـن خـزف
إن أقمـــت الليـــل ذابـــت وإذا هبـــت الـــريح عليهـــا تنطفـــي

مـــا الـــذي يفعلـــه ســـيدنا بالمصـابيح التـي حـول المـزار
ثـم مـا معنـى مـزار وضـريح وســـتور وعطـــور وجمـــار

لـيس مـا يعطـى لهـذي الأوليـاء مـــن نـــذور باســـمهم إلا ربـــا
المرابـــي دائمـــاً مختبـــئ وولـي القـوم فـي القبـر اختفـى

يـــا إلهـــي كـــم لنـــا مـــن كعبـــة كـم لنـا مـن صـنم فـي الحـرم
وفقاعـــات قبـــاب فوقهـــا ** جعلتنـــا ضـــحكة للأمـــم[71]

إنها معاناة العارف؛ فهذه المدارس الفقهية التي يتخصّص بها طلبة المدارس الدينية في الهند تحقّق تفوقاً غير عادي في حفظ المتون، ويتخرّج طلابها حفظة لكامل القرآن الكريم وكتب السنن المعتبرة، البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه، ولكن هؤلاء الحافظين لا يقدمون أكثر من نسخ جديدة لهذه الكتب القديمة، وهيهات أن تستطيع ثقافة الاجترار أن تأتي بجيل جديد، أو نهوض جديد.

غصـن العقيـدة فـي المـدارس عـار ومـــذاق أديـــرة بـــلا أســـرار
بـالرغم مـن طـول الطريـق وعسـره عينـــاك ظاعنـــة وقلبـــك ســـاري

أســـفاً لـــدين لـــيس يكســـب دولـــة ولدولـــة وقفـــت كخيبـــر وجهـــه
مـــن أيـــن للاثنـــين كـــرة حيـــدر ** يلقـــي ســـخافتها ويصـــلح فقهـــه[72]

---

[71] الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 548.

بات الفقيه غارقاً في جدل المصطلحات، ولم يعد في قلبه ذلك اللهيب الذي يبعث الحياة، ويوري نار العزيمة، لقد تحول إلى رماد باهت، وأصبحت دراساته حنوطاً من الرواية يكرّرها ويستظهرها بلسان فارغ ما لها على القلوب من أثر، ولا سلطان:

عين الفقيه من الندى محرومة أفنت حقيقته وراء مجازه
فتشت في دنياه لم أرَ جرعة من ماء زمزم في رمال حجازه

يرقى المنابر خائفاً من أنه يرقى ليسقط بين ألف كتاب
إني لأخجل ان أصرّح أنه ** يرقى ليضرب نفسه بحجاب[73]

أين ذهبت تلك المدارس التي كانت تضجّ بها بغداد وأصفهان ودمشق وتبريز؟ أين هي تلك المدارس التي تخرّج فيها طارق وعقبة؟ ومحمود الغزنوي وإياز؟ وصلاح الدين ونور الدين؟ أين توثّبهم ولهيبهم؟ ولماذا تحولت مدارسنا إلى رماد بلا لهيب، ولم يبقَ فيها إلّا كراسات وطباشير؟

ما في مدارسك التي ترتادها إلا بحوث مغفَّل وبليدِ
سرُّ الدراسة في فؤادك كامن ** لو كنت تحسن صرخة التوحيدِ[74]

تفيض ألسنتهم بكلمة التوحيد، ولكن قلوبهم غافية غاربة عن دلالة التوحيد في الحرية والكرامة والعزيمة؛ ألسنتهم رطبة بالذكر وقلوبهم غافلة عن مقاصده؛ يقرؤون نصف القرآن ونصف التوحيد ونصف الصلاة ونصف الذات:

---

[72] نظم زهير ظاظا، والأبيات من ديوان إقبال أرمغان حجاز، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج2، ص 455.
[73] نظم زهير ظاظا لقصيدة إقبال في جناح جبريل، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج2، ص 505.
[74] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

مــولاي مســلمك الــذي أعطيتــه مـن شـعلة التوحيـد نصـف هـداه
مــازال يحمــل (لا إلــه) مجاهــداً ** فمتــى ستشــرق فيــه (إلا الله)[75]

إنه أمر رهيب أن تتأمل تلك اللحى البيضاء التي تعيش في ركام الكتب العتيقة في المدارس الأشرفية والمحمودية والبرهانية في لاهور، وهؤلاء الرواة الغارقون في المسانيد يدهشون الدنيا بقوة حافظتهم وبديع استظهارهم؛ إنهم مكتبات كاملة تمشي على الأرض... جبال علم وحفظ ورواية، لكنهم لا يحملون لعناء الناس إشفاقاً، ولا يمنحونهم ترياقاً، وقد خرجوا من الدنيا وهم من أهلها، يمارسون الرواية، ويعيشون في غار الأثر وغابر الخبر، ولكن أين أولئك الذين يستطيعون أن يضيؤوا بنور الماضي وجه المستقبل، وأين أولئك الذين يسرجون بزيت النبوّة مصابيح الحياة:

يمّمــت مدرســة الأســود رأيتهــا تبكــي أبــاطرة الزمــان الــذاهب
جــارت عليهــا الحادثــات فأصــبحت مرعــى لخرفــان ووكــر ثعالــب

مــا للقوافــل مــن يقــود ركابهــا بجــوار موســى فــي رحــاب الله
مــن أيــن للعصــفور ذوق نشــيده ** والجمــع ســــارٍ والمــردّد لاه [76]

إنها شجاعة المعرفة إذاً، من أين يمكن للمعرفة أن تتقدّم، إذا كان المطلوب فحسب هو تعظيم الآباء؛ أليس القرآن الكريم هو من علمنا الثورة على الآبائية والجمود؛ إنا وجدنا آباءنا على أمّة، وإنا على آثارهم مقتدون.
أيّ خطوة يمكن للمعرفة أن تنجزها حين يكون غايتها تعظيم الآباء وعبادة إنجازاتهم؟ وأيّ أفق لرسالة الإسلام لو أنّ محمداً اكتفى بالثناء على قصي وعبد مناف ومنع نقدهم ومراجعاتهم؟ هل تغيّر العالم بالفلاسفة المدرسيين، أو بغضب غاليلو وكوبرنيكوس وجوردانو برونو:

---

[75] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[76] نظم زهير ظاظا، من ديوان أرمغان حجاز لإقبال، والأبيات وما بعدها في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج2، ص 463,

البحـــث يلزمـــه مواهـــب باشـــق وفـــؤاد ليـــث لا يخـــاف جروحـــاً
مـــن غيـــر معرفـــة وغيـــر قـــراءة ** يجـــد الشـــجاع طريقـــه مفتوحـــاً[77]

ويشدد إقبال على أنّ رسالته ليست رسالة المجتمعات المخملية الساكنة في أبراج العاج... إنّها في العمق رسالة الدراويش أنفسهم، الذين يرون الله مصدر كمال وطهر، ويفهمون الشريعة بأنّها مراده وأمره، ويرون أن الإسلام إنّما جاء لينصفهم من المظالم والمآثم، وهو من يحقّق لهم كرامتهم وسعادتهم ومساواتهم بالملوك.

يقولـــون إقبـــال مـــاذا يريـــد ومـــن أيـــن جـــاء بهـــذا الســـلوك
ســـألت الـــدراويش عـــن ســـرّها وألقيتـــه فـــي وجـــوه الملـــوك [78]

وفي بيوت الله يجد الحائر سلوة قلبه، ويجد المسكين أنس حيرته، هو كذلك مسجد محمد وكنيسة المسيح، لقد بناه عسفاً من النخل، وحشواً من أدم؛ أمّا عيسى، فقد سقفه بورق التين، وكانت بيوت رحمة ومساواة وأنس....
ولكن هذه المعابد اليوم تحوّلت إلى مبانٍ عملاقة تعاظمت فيها القباب والمحاريب والمنارات والقداديس وغاب عنها الله، وتزاحم فيها المصلّون وغاب عنها الإيمان.
ويحمل إقبال رسالة غاضبة من الملأ الأعلى، يخفق بها جناح جبريل، ويهدر فيها غضب الربّ ووعيده: ويلٌ لأمة تكثر معابدها ويقلّ عبادها، وويلٌ لأمّة تزخرف فيها المحاريب وتتدابر فيها القلوب، وويلٌ للمعابد تزدان جدرانها وينهار إنسانها.

قومـــوا إلـــى كـــوني الغريـــق وأطلقـــوا فقـــراءه فيهـــــــا علـــى الأمـــراء
أيبـــــدلون مســـــاجدي بقصـــــورهم جـــوراً علـــى خلقـــي وهـــم أجرائـــي

قولـــــوا لحـــــائرهم تبـــــدّل أمـــــركم فاســـــتبدلوا بـــــرد اليقـــــين بنـــــاره
قومـــوا إلـــيهم وانفحـــوا مـــن روحنـــا فـــيهم ولا تأســـوا علـــى أســـراره

قومـــوا إلـــى ضـــعفائهم وهبـــوا لهـــم مـــا يجعـــل العصـــفور يصـــرع بـــازاً

---

[77] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[78] نظم زهير ظاظا، ديوان إقبال جناح جبريل، ديوان إقبال، ج 1، ص 435.

وامحوا من الماضي جميع ذيولـــه لا تتركـــوا للجامـــدين مفـــــازاً

لـــم هـــذه الحجـــب التـــي تلهـــو بهـــم وتحـــول بـــين الخلـــق والخـــلاق
لاتتركوا في الأرض ستراً مســـبلاً ألقـــاه كـــاهنهم علـــى أرزاقـــي

ومـــن الكنـــائس أخرجـــوا أربابهـــا الغـــارقين بلجّـــة الأوهـــــام
لله قـــد شـــرع الســـجود ومـــا ســـوى هـــذا مـــؤامرة مـــع الأصنـــــام

جوسوا الكنائس والمساجد لا أرى لكنيســـــة ولمســـــجد مصـــــباحاً
أنـــا غيـــر راضٍ عـــن رخـــام أبـــيض تلقـــى بـــه ســـود القلـــوب مراحـــاً

وابنـــوا مـــن الطـــين المعابـــد عـــلّ أن يجـــد الســـكينة عبـــدي المســـكين
يتنافســـــون بنقشـــــها وبرقشـــــها ** والطـــــين لا يهديـــــه الا الطـــــين[79]

وفي ثورته على الكهنوت لا يتوقّف إقبال عند حدود التأمّل والنظر؛ إنه يلقي مواعظه على الجبل كالمسيح، تحنانـاً وريحانـاً، لكنّه حين ينزل إلى أسواقهم، ويطوف بين الفريسيين على موائد القمار وهم يتاجرون بالدين والله والإنسان، لا يستطيع أن يستمرّ في ابتسامه ومجاملاته، لقد استيقظت في نفسه كرّة حيدر وبأس عمر.

وفي إحدى روائعه ينتفض إقبال من مقعده غاضباً، فيفسد الحفل المخصّص لتكريم المُلّا الشهير ذي اللحية الطويلة والبرذعة المزركشة، الذي نجح في إقناع الملائكة بتعميده سفيراً للربّ في العالم، يتعلّم منه المريدون والسالكون شعائر الدين وطقوس العبادة، وهو خاوي القلب أبله، لا يتقن إلا طقوس الشعائر، ويمضي أيامه بليداً خامداً بلا لهيب. وينتفض إقبال في المهرجان، ولم يشأ أن يسكت عن كلمة حقٍّ، فصرخ بها في مسمع الملائكة، ووجد نفسه يشرح ثورته مباشرةً أمام الله:

أنـــا أيضـــاً كنـــت لكـــن مـــا تحمّلـــت الســـكوت

[79] الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 494.

كـــدت مـــن شـــدّة غيظـــي أتمنـــى أن أمـــوت

كنـــت إذ بشـــرت الحجـــاب بـــالفردوس مـــلّا
فتقـــــدمت أنـــــادي عفـــــوك اللهـــــم كـــــلّا

لـــيس للمُـــلّا اهتمـــام بمغانيـــك وحـــورك
هـو سـكران نعـم سـكران مـن غيـر خمـورك**[80]

لماذا يُكرّم هؤلاء الملالي؟ وما عساهم يقدّمون إلى هذا الجيل الواثب غير الأوهام والجهل؟ وما الذي يحتاجه الجيل الجديد من محفوظاتهم الكئيبة؟

مـــا درى مـــن لجّـــة الـــذوق ســـوى قيـــل وقـــال
يحســـب الـــدين الـــذي أنزلـــت تـــاريخ جـــدال

لا يـــرى فـــي النـــاس إله تقيـــاً ومطيعـــاً
كيـــف ترضـــى عـــن غبـــي كفّـــر النـــاس جميعـــاً

لـــيس فـــي الفـــردوس ذكـــر لكهـــوف وصـــوامع
إنـــه رونـــق ســـرّ الحـــب فـــي فـــيض المـــدامع**[81]

ويمضي إقبال في شرح ذلك الغضب الهادر، ويكشف عن جدل عاصف في العالم الأعلى احتجاجاً على صيحاته، وهي نرجسية طاغية يكرّر بها صراخه المستمر في شكوى وجواب شكوى، ويرى بثقة أن شكواه كانت حدثاً تزلزل له العالم الأعلى، وهكذا صرخ إقبال: إمّا أن يتغيّر الخطاب الديني، وإمّا فليتغيّر العالم كلّه!! تفاجأ بها جمهور إقبال في الأرض وفي السماء على السواء!!

---

[80] جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال الأعمال الكاملة، ج 1، ص 505.
[81] الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 505.

لمـــا اشـــتكى لله إســـرافيل مـــن شـــكواي قـــال بحرقـــة وتنهّـــد
هـــذا الفتـــى قبـــل الأوان يريـــد أن ينهـــي الوجـــود بشـــعره المتمـــرّد

فأجابـــه صـــوت ألـــيس أشـــدّ مـــن هـذي النهايـة مـا تـرى يـا سـيّدي
إحـرام أهـل الصـين داخـل سـورها ** وهمـود مكّـة فـي جـوار محمّـد[82]

[82] الأبيات من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 422.

إقبال ونظام الخلافة:

سجّل إقبال موقفاً فريداً في مسألة الخلافة؛ فعلى الرغم من حنينه الدائم إلى الدولة المسلمة، وإلى التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، لم يكن يرى الخلافة بوضعها البائس تعبيراً عن شيء من هذا، واختار الدعوة إلى الدولة الحديثة التي تحمل قيم الإسلام بدل الدولة القديمة التي تحمل اسم الإسلام ولا تعرف رسالته ومجده.

ونظام الحكم في الإسلام مصطلح فقهي محدث، ولكن معناه قديم، وقد كان يتمّ التعبير عنه بصيغة السياسة الشرعية أو أحكام ولي الأمر، أو الأحكام السلطانية وغير ذلك، وقد كتب الفقهاء، قديماً وحديثاً، في شروط الحاكم وآداب الحكم وأنظمة الحكم في الإسلام بلغة تراثية معزّزة بالروايات تأسيساً على تطبيق السلف الأوّل، المتفق على إمامته واستقامته.

ولكن إقبالاً لم يكن يرى الحكم الإسلامي شعاراً أو دثاراً، إنه باختصار التطبيق العملي لقوله تعالى: [لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط] [سورة الحديد 25] وقد عُدّت هذه الآية مباشرة في تحديد صورة نظام الحكم في الإسلام، بناء على أهدافه وغاياته ومراميه، وهي العدل والقسط وإنصاف الناس.

لا يوجد شكل سياسي يمكن القول إنه أمر الله دون سواه، ولم يأتِ القرآن الكريم لينتصر للحكم الجمهوري، أو الملكي، أو الاشتراكي، أو الرأسمالي، لقد كان المطلب القرآني واضحاً في طبيعة الحكم الإسلامي بأنه رسالته العدل ليقوم الناس بالقسط، ووسيلته الشورى وأمرهم شورى بينهم (سورة الشورى 38)؛ أي حكم الجماعة، وهو ما يقتضي أنه مناقض للاستبداد. ولكن ذلك لا يعني، بأيّ حال، أن تفاصيل المجالس الحاكمة والهيئات السياسية التمثيلية يمكن أن نحدّدها وفق نصوص القرآن الكريم أو السنّة المشرفة.

إن إقحام النص الديني في وصف شكل الحكم في الإسلام يعدُّ تعسّفاً وتمحّلاً تأباه العقول السليمة، ولا يزال التاريخ الإسلامي ينتج أشكالاً لا تنتهي من صيغة الحكم، تخيرها الناس في قرون وأمصار شتى، واجتهدوا أن يحققوا للناس الأمن والعدل، وكلّها وقف وراءها فقهاء وأصوليون.

لقد ولّي أبو بكر الخلافة عن شورى بين النخبة، فيما ولّي عمر بن الخطاب بوصية من الحاكم الراحل أبي بكر الصديق، وولّي عثمان عبر مجلس خبراء تخيّره عمر، وولّي علي عبر ظروف حربية استثنائية، وولّي معاوية عبر اتفاق سياسي مع الحسن، وولّي يزيد وراثةً عن أبيه.

إنها باختصار ستّة أنظمة مختلفة لاختيار الحاكم تمّ تطبيقها بعد رحيل الرسول مباشرةً، وعبر كبار الصحابة.

إن نظام الحكم في الإسلام هو سلسلة من القيم العليا التي ينبغي تحقيقها في المجتمع من الأمن والحرية والعدالة والمساواة والتعليم والصحة، وهذا هو جوهر توحيد الله ورفض الخضوع للجبت والطاغوت، وأيُّ نظام حقّق هذه الأهداف هو النظام الإسلامي الذي يحقّق أهداف النبوّة في الدولة الرشيدة، وأيُّ حكم يكرّس المظالم والفوارق والجهل والتخلّف لن يكون نظاماً إسلامياً، مهما كان يتدثّر بشعارات التوحيد والكتاب والسنّة.

أمّا التعبير بالخلافة، فقد كان سبيلاً لربط الخلف بالسلف، وتذكير الحاكم بأنه يستكمل رسالة النبوّة، وبأن مسؤوليته هي العدل والمساواة بين الرعية.

ولكن الخلافة ليست شعاراً إعلانياً خاوياً؛ بل هي أسلوب حكم مرتبط بالمقاصد، وحين تعجز عن تأمين العدل والمساواة، فلا معنى على الإطلاق لاعتبارها صورة الإسلام ورسالته.

لقد باتت الخلافة، في القرون الأخيرة، علقة شقاء على الشعوب الإسلامية، وعجز الخلفاء عن تأمين العدل في الرعيّة، وعن وقف الفساد في قصورهم وعروشهم، وانفصل الخليفة تماماً عن معاناة الناس وعذاباتهم، وباتت الخلافة، كما رآها إقبال، مريضةً بائسةً، تسلّط عليها العسكر من كلّ وجه، وغرقت في الفساد والتفكّك، ولم يبقَ لها سلطان على أهلها، ناهيك عن الشعوب الإسلامية في البلاد البعيدة، التي باتت تعاني مظالم القهر والجهل والعجز دون أن تتمكن الخلافة من تقديم التنمية والازدهار لهذه الشعوب.

وفي المشهد الدولي، فقد باتت الخلافة العثمانية مترهّلة واهنة، لا تستطيع أن تواجه التطورات المتسارعة للشعوب الأوربيّة الواثبة وهي تتقاسم العالم، وقد أصبحت الخلافة نفسها ميراثاً لكلّ ناهب، وباتت عاجزةً عن حماية نفسها في الأناضول، ناهيك عن حماية الشعوب الإسلامية في الجزيرة العربية والهند وآسيا الوسطى والشمال الأفريقي، وبات

من حقّ هذه الشعوب أن تحقّق ذاتها واستقلالها وأمانيها بعيداً عن المراسيم الهمايونية التي كانت تصدر عن الأستانة، ولا تحمل إلى العالم الإسلامي إلا الإرباك والوهن، ولا تقود مشروعاً تنويرياً صالحاً لقيام هذه الشعوب ونهضتها. وفي النهاية، باتت شيخوخة هذا النظام السياسي الواهن واضحة لكلّ مراقب، واصطُلح على تسميتها «الرجل المريض» بعد أن صارت نهباً للأمم الغالبة.

وفي موقف لافت يتحدّث إقبال عن التحوّل من نظام الخلافة التقليدي إلى نظام الحكم الجمهوري، ويرى أن النظام الجمهوري أكثر تعبيراً عن قيم الإسلام في العدالة والمساواة والشورى من نظام الخلافة الذي أصبح مظهر استبداد فارغ، تتوارثه عائلة حاكمة، لا مزايا لها إلا النسب الموصول بالعساكر المحاربين الذين أخضعوا العالم ذات يوم بجيوشهم الجرّارة، ثمّ يأخذه العجب من إقرار العالم الإسلامي بنمط حكم كهذا، لا يوجد فيه ما يتصل على الإطلاق بقيم الإسلام الأصيلة في الحرية والمساواة والتشاركية وتداول السلطة.

ومع أن إقبال عاصر أفول الخلافة العثمانية، يوماً بيوم، لكنّه، في الواقع، لم يجد ما يبرّر العطف على هذا النمط الهمايوني من الحكم، الذي أصبح علقة شقاء للترك وللعالم الإسلامي كلّه، ولم تقنعه أبداً تلك الألقاب المهيبة التي يلقيها الخلفاء على أنفسهم: خليفة الإسلام والمسلمين، وحامي حمى الدين، وخادم الحرمين الشريفين، وأمير المؤمنين، والغازي الأعظم، والفاتح الأفخم حضرة أقدس همايون السُلطان خان المُعظَّم، پاديشاه، عاهل آل عُثمان، سُلطان السلاطين، بُرهان الخواقين، وخليفة رسول ربِّ العالمين، مُتوِّجُ المُلوك، ظِلُّ الله في الأرضين وسُلطانُ البحرين!! وهذا ليس إلا ثلث اللقب الرسمي للعثمانيين، ورأى أنها ألقاب مملكة في غير موضعها، وأنها لا تحقّق شيئاً للإنسان، ولا معنى لحضارة لا تجعل محورها الإنسان.

لماذا تكون هذه الخلافة صورة الإسلام في العالم، وهي ترتكز على الحكم الفردي الاستبدادي، ولا تعكس أيّ روح جماعية ديمقراطية، ولماذا نتصوّر أنها تعبّر عن وحدة المسلمين بعد أن صارت صورة بائسة لا تستطيع مواجهة نزعات التتريك المحلية، وأصبح استمرارها يتطلّب ولاة مستبدّين باطشين يحولون دون قيام الشعوب، ودون نهضتها وحريتها.

لقد تجاوز العالم كلّه فكرة الإمبراطور الفرد، وحتى الدول التي تحمل الدم الإنكليزي الصلب الرافض للتطوير، اختارت، في النهاية، الحفاظ على ملوكها هياكل من ذكريات، ولكنها نزعت من أيديهم الحكم، ودفعته إلى المجالس المنتخبة الديمقراطية؛ فلماذا يجب على الأمة المسلمة أن تتخلّى عن حرياتها وقيامها ونهوضها من أجل تقاليد عتيقة زخرفها وزخرف لها وعّاظ السلاطين، ولم تعد تعني المسلمين في شيء.

لقد أدهشه أن هذا النمط من الحكم، الذي يركز السلطة كلّها في يد الفرد، وينقلها إلى أبنائه بعد موته، ليس له أصل في الشرع؛ بل إن نصوصاً كثيرة نهت عن الملك العضوض الذي يتوارث السلطات، ولا وجود في نصّ القرآن الكريم كلّه لمنصب الخلافة، ناهيك عن منصب وليّ العهد المتربّص بالمنصب وفق إرادة المستبدّ وضد إرادة الشعب.

ويبدي إقبال إعجابه بالإصلاحات الكبيرة التي يقوم بها مصطفى كمال أتاتورك في تركيا، ويبدي رغبته بأن يقوم أتاتورك جديد في كلّ بلد إسلامي، ينفض عنه غبار القرون!! ويقول ما نصّه:

«إن تركيا، في الحق، هي الأمّة الإسلامية الوحيدة التي نفضت عن نفسها سبات العقائد الجامدة، واستيقظت من الرقاد الفكري، وهي وحدها التي نادت بحقها في الحرية العقلية، وهي وحدها التي انتقلت من العالم المثالي إلى العالم الواقعي؛ تلك النقلة التي تستتبع كفاحاً مريراً في ميدان العقل والأخلاق»[83].

وقد أثار إعجاب إقبال بأتاتورك حيرة كثير من المفكّرين الإسلاميين، وتأوّل له كثير بأن موقفه هذا كان قبل أن تظهر نوايا أتاتورك الهدّامة، ولكنني أعتقد أن إقبال كان على بصيرة في موقفه، وقد تجاوز العاطفة التقليدية، ونظر إلى مصلحة العالم الإسلامي الحقيقية.

لقد بات واضحاً أن أوربا تتقاسم تركيا المريضة، وأن الخليفة لا حول له ولا قوة، وقد بات مستعداً أن يعقد لواء الصدر الأعظم لكلّ غالب، وكان من الوارد تماماً أن يكون هذا الصدر بريطانياً أو فرنسياً وفق سياق الأحداث الجارف. ومن هنا قدّم إعجابه بالجهد

---

[83] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، ص 242.

الكبير الذي بذله مصطفى كمال أتاتورك في مواجهته للجيوش الأوربيّة، ورفض تسليم تركيا للغرب، وإعلانه استقلال تركيا دولةً حديثةً وفق القيم الديمقراطية في العالم المتحضّر.

يبدو إلغاء منصب الخلافة عملاً مرعباً أغضب التيارات الإسلامية التقليدية في العالم كله، ولكن إقبال نظر إلى المسألة في سياق المقاصد، بعد أن بات واقع الخلافة عاجزاً عن تحقيق أيٍّ من مقاصد الإسلام الكبرى في الحكم، وباتت ألقاب مملكة في غير موضعها... كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد.

ومع أن موقف إقبال لا يشبه الخطاب التقليدي الذي تعودنا سماعه في رثاء الخلافة باعتبارها صورة الإسلام ومجده، ولكن هذا الموقف الواقعي شاركه فيه كثير من المفكّرين الإسلاميين الذين عاصروا تلك المرحلة، وربّما كان من المفيد أن نشير هنا إلى نصٍّ بالغ الأهمية كتبه الزعيم الإسلامي الفقيه الكبير عبد الحميد بن باديس في رثاء مصطفى كمال بعد موته.

وعبد الحميد بن باديس كان أيضاً ضمير الثورة الإسلامية في الجزائر على الاستعمار الفرنسي، وقد وجد مشتركاً كثيراً في حركة أتاتورك الرامية إلى التخلّص من هيمنة الدول الأوربيّة التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية على تركيا، ووجد في نجاح أتاتورك في توحيد تركيا ما يدعوه إلى تقدير هذه البسالة، واعتبارها أيضاً انتصاراً لقيم الإسلام في الحرية والأمن والكرامة.

ولا بأس أن نروي طرفاً ممّا كتبه باديس، وهو رئيس جمعية العلماء الجزائريين في رثاء أتاتورك، وهي مقالة طويلة نشرتها صحف كثيرة، وتلتقي مقاصدها بما كتبه إقبال في حقّ أتاتورك:

«في السابع عشر من رمضان المعظّم ختمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب، فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقاً، ذلك هو مصطفى كمال، بطل غاليبولي في الدردنيل، وبطل سقاريا في الأناضول، وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعزّ والسموّ...

إنني أرى من المناسب، أو من الواجب، أن أقول كلمة في موقفه إزاء الإسلام، فهذه الناحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك الذي ينقبض لها المسلم...

لقد كان خليفة المسلمين يجلس في قصره تحت سلطة الإنجليز المحتلّين لعاصمته ساكناً ساكتاً، أستغفر الله بل متحرّكاً في يدهم تحرّك الآلة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقاً لإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه، الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين...

وأما شيخ الإسلام وعملائه، فيكتبون للخليفة منشوراً يمضيه باسمه، ويوزعه على الناس بإذنه، وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه، يبيح فيه دم مصطفى كمال، ويُعلن خيانته، ويضمن السعادة لمن يقتله.

وأمّا شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنوّمون، فقد كانوا أعواناً للإنجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم، يوزّعون ذلك المنشور، ويثيرون الناس ضد المجاهدين.

وأمّا الأمم الإسلامية، تعد السلطان العثماني خليفة لها، فمنها -إلا القليل- من كانوا في بيعته، فانتفضوا عليه، ثم كانوا في صفّ أعدائهم وأعدائه، ومنها من جاءت مع مستعبديها حاملةً السلاح على المسلمين شاهرةً له في وجه خليفتهم.

فأين هو الإسلام في هذه (المشاهد) كلّها؟ وأين يبصره مصطفى الثائر المحروب، والمجاهد المقهور- منها؟

لقد ثار مصطفى كمال حقيقةً ثورةً جامحةً جارفةً، ولكنّه لم يثر على الإسلام، وإنّما ثار على هؤلاء الذين يسمّون المسلمين، فألغى الخلافة الزائفة، وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم، فرفض مجلّة الأحكام، واقتلع شجرة الطرقية من جذورها، وقال للأمم الإسلامية عليكم أنفسكم وعليّ نفسي، لا خيرَ لي في الاتصال بكم مادمتم على ما أنتم عليه، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون كما تفعل الأمم ذوات السيادة والسلطان.

أمّا الإسلام، فقد ترجم القرآن لأمته التركية بلغتها، لتأخذ الإسلام من معدنه، وتسقيه من نبعه، ومكّنها من إقامة شعائره، فكانت مظاهر الإسلام في مساجده ومواسمه تتزايد في الظهور عاماً بعد عام، حتى كان الظهر الإسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه، تغمّده الله برحمته.

لسنا نبرّر صنيعه في رفض مجلّة الأحكام، لكنّنا نريد أن يذكر الناس أن تلك المجلة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ما كانت تسع حاجة أمّة من الأمم في كلّ عصر؛ لأنّ الذي يسع البشرية كلّها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه، لا مذهب واحد، أو جملة من مذاهب محصورة، كائناً ما كان، وكائنةً ما كانت.

ونريد أن يذكر الناس أيضاً أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم، وما كانت حواصلهم الضيّقة لتتسع لأكثر من ذلك، كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت، إلى اليوم، الأحكام الشرعية (غير الشخصية) معطّلة فيها، ولا يزال (كود) نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم، و ما زال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء –غير المذهب الحنفي- مهجوراً كذلك، إلّا قليلاً جداً.

نعم إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية، وليس مسؤولاً في ذلك وحده، وفي إمكانهم أن يسترجعوها متى شاؤوا، وكيفما شاؤوا، ولكنه رجّع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض، وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع، وهو وحده كان مبعثه ومصدره، ثم إخوانه المخلصون[84]، وأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية إلى (كود) نابليون فماذا أعطوا أمّتهم؟ وماذا قال علماؤهم؟

فرحم الله مصطفى، ورجّح ميزان حسناته في الموازين، وتقبّل إحسانه في الحسن »[85].

لقد نقلنا النص بطوله عن الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهو من هو في ضمير المجاهدين في الجزائر، وفي العالم الإسلامي كلّه، والمُراد من ذلك أن نوكّد أنّ المواجهة مع نظام الخلافة المتهالك لا يعني أبداً المواجهة مع الإسلام، وإنما مع نمط حكم عجوز قائم على الاستبداد لم يعد قادراً على التعبير أبداً عن آمال الأمة المسلمة، ولم يعد صورة لقيم نظام الحكم الإسلامي في تحقيق العدالة والمساواة والحرية، وهذا بالضبط ما أراده إقبال.

وربّما كان إقبال أشدّ المفكرين الإسلاميين وضوحاً في تفضيل الديمقراطية الحديثة على منطق الخلافة، على الرغم من السحر اللفظي الذي تعبق به كلمة الخلافة، ولا سيّما حين يُقال إنها خلافة على منهاج النبوّة.

لقد رأى إقبال أنّ الخلافة على منهاج النبوّة لا يمكن، بحالٍ، أن تكون هذا الشكل الهمايوني الذي يتعاقب به السلاطين العثمانيون المفصولون عن العالم، والمستمسكون

---

[84] كذا هي بالضبط عبارة ابن باديس كما حررناها من مصدرها المذكور، وهو يعكس فرط ثقته بمشروع أتاتورك

[85] بن باديس، الشيخ عبد الحميد، مقال نشره في عدد نوفمبر، 1938، مجلة الشهاب الجزائرية، ثمّ أعادت صحف كثيرة نشره في السنوات الأخيرة؛ منها مجلة الحوار الجزائرية، تشرين الثاني/ نوفمبر، 2017. ولم تقم جمعية العلماء الجزائريين بإنكاره.

بمزاياهم وألقابهم وعروشهم وتيجانهم دون أن يكون لهم شرف الإسهام في خدمة الناس، وحماية الأمّة، وبسالة الدفاع عنها.

وحين وازن إقبال بين الديمقراطية وبين الخلافة، لم يجد أدنى حرج أن يقدم الديمقراطية منهجاً إسلامياً أوثق رباطاً وأوفى اتصالاً بقيم الإسلام الخالدة في الحرية والكرامة والعدل والمساواة، بعد أن أصبحت الخلافة صورة كئيبة للعجز والهوان والخمول.

وفي وعيه بالديمقراطية توجّه إقبال لتأكيد حقيقة مهمّة، وهي أن الفطرة في الإنسان هي أثر الله وخلوده في ابن آدم، وأن الله ما زال موجوداً في الإنسان، وأن علينا أن نبحث عن الوحي والكتاب في فطرة الإنسان! وهو كما يناشده إقبال:

عطرك اللهم في الإنسان ما زال ولونك!!

لماذا لا تكون الفطرة هي هذه القيم العالمية التي يتوافق عليها حكماء العالم ومشرّعوه؟؟

لماذا لا تكون قيم العالم الحرّ في المساواة والحرية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة والطفل وحماية اللاجئين وغوثهم وتشغيلهم وتحريم الاسترقاق والتجارة بالبشر وحماية البيئة هي الفطرة التي فُطر الناس عليها؟

تبدو فكرة الفطرة في الإسلام، كما في سائر الأديان، فكرة ضرورية لبيان قدرة الخالق، وعظمته في خلق البشر على قدر كبير من التشابه في الطبائع والغرائز، ولكنّها، للأسف، تقتصر عند حدود هذا الجانب الإيديولوجي الذي يستخدمه علماء العقائد، وقلّ أن تصل إلى ذلك الأفق الذي يقصده علماء الاجتماع.

من المسلّم به فقهياً واعتقادياً أن الخالق واحد، وأن هذه الفطرة التي فُطر الله الناس عليها متشابهة، نظراً لوحدة الصانع؛ بل إننا نملك في الوعي القرآني أن نقول إنها متطابقة وليست متشابهة فحسب؛ لأن الخالق هنا كلّي القدرة مطلق العصمة، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي الإطار الإيديولوجي، إن الحديث عن آيات الله في الخلق هي الغالبة، ومن هنا تناول الفقهاء والمفسّرون، بتفصيل كبير، وحدة الخالق عبر النظر في طباع المخلوق وفطرته وغرائزه، إنساناً وحيواناً، وأصبحت مظاهر التشابه بين الكائنات الحيّة واحدة من أدقّ مظاهر التعريف بالله سبحانه، والتأكيد على وجود الخالق.

ولكن الأفق الاجتماعي في هذه العقيدة هو البعد الأهم؛ حيث تبدو الفطرة هنا حجر الرحى، وهي تحدّد المشترك الإنساني وآفاق التعاون والتكامل بين سكان هذا الكوكب من بني آدم على اختلاف طبائعهم وشعوبهم وقبائلهم وأديانهم.

أضافت العقيدة الإسلامية فكرة الفطرة التي فطر الخالق عليها الناس إلى مبدأ أشدّ تأثيراً وفاعلية، وهو النفخ من روح الله، فالكائن البشري، وفق القيم الإسلامية، وهي قيم تتشابه تماماً مع الكتب الأولى في التوراة والإنجيل، وخلاصتها أن هذا الإنسان فيه أيضاً نفحة أو نفخة من روح الله، وهذه النفحة هي التي تحقّق التشابه بين الإنسان وأخيه الإنسان، حتى يكون مظهراً لروح الله تعالى ووجوده.

ومن المؤكّد أن هذه العقيدة قد تطوّرت صوفياً إلى حدّ القول بوحدة الشهود ووحدة الوجود، ومن المؤكّد أن وحدة الوجود، التي عبر عنها ابن عربي والصوفية من بعده، ليست على الاطلاق شطحة عابرة قالها في المحو؛ بل هي جوهر رسالته وجوهر دعوته الإنسانية، وقد كرّرها في الفتوحات أكثر من مئة مرّة، كما كرّرها جلال الدين في المثنوي عشرات المرات وهو يتحدث عن روح الله وتجليه وأسراره التي أودعها الله في الإنسان.

وربّما يكون للقلم جولات أخرى فيما كتبه ابن عربي في وحدة الوجود والشهود، ولكنني اليوم أرجو أن أبقى في الإطار الاجتماعي لمبدأ الفطرة وتجلياتها في بناء الأسرة الإنسانية الواحدة.

إن العقل الإنساني والفطرة الإنسانية لها اليوم تجلّياتها وآفاقها التي تظهرها الإحصائيات العالمية، التي صارت تعتمد قواعد رياضية محكمة لا مجال فيها للشكّ، أو لنقل إن الشك نفسه أصبحت تنظمه قواعد احتمالية صارمة اتفق عليها العقلاء، وأصبح صدور الحقيقة الرقمية العلمية يترافق دوماً ببيان احتمالات الشكّ أو الخطأ وفق أرقام محددة لا تتجاوز، في كثير من الإحصائيات، عتبة الواحد أو الاثنين في المئة، وأصبح يمكن القول على الأقلّ في المجتمعات الديمقراطية، التي تشكل اليوم (باستثناء الصين) أكثر من سبعين بالمئة من سكان هذا الكوكب، وأصبح يمكننا الاطمئنان لهذه الأرقام التي تقدّمها الأمم المتحدة بمعاييرها الدقيقة عن رأي الإنسان في كثير من القضايا الملّحة على ظهر هذا الكوكب.

إن موقف البشرية من التأكيد على العدالة والأمانة والنظام والوفاء بالعهود، وتحريم القتل والسرقة والربا الفاحش وتجارة الفحشاء والإدمان على الكحول والمخدرات،

وتحريم الاستبداد والاسترقاق والتعذيب الجسدي، والانتقال في العقاب من العقوبات الانتقامية الثأرية الجسدية إلى العقوبات الإصلاحية المتحضّرة، هو لون من مظاهر الفكرة التي فطر الله الناس عليها.

ويحلو لأولئك الذين لا يؤمنون بالأسرة الإنسانية الواحدة أن يتحدثوا بإسهاب عن الخلافات العميقة بين الاتجاهات الديمقراطية في العالم، وأن الديمقراطية لا تنتج شرائع متطابقة، والحقيقة أن أحداً لا ينبغي أن يفكر في إنتاج الشرائع المتطابقة، فهذا حلم غير واقعي وغير مطلوب، إن المطلوب هو الاتفاق على أصول عامّة في المبادئ يكون الإنسان فيها هو محور التشريع وغايته، وهو ما أصبح يُعرف حقوقياً بالمواد فوق الدستورية، ولا بأس أن يكون لكلّ أمّة شرع ومنهاج، ولا يضير هذا الحقيقة في شيء.

هكذا وجد إقبال في الفطرة التي فطر الله الناس عليها مبدأً كاملاً لاحترام المنجز الإنساني على المستوى التشريعي، وبنسب أداءٍ عالية تقدّمها الأرقام، وحين ندعو، هنا، لاحترام المنجز الإنساني، فإنني، بكلّ صراحة، أجد في هذه الدعوة مبدأ احترام الله نفسه، الذي جبل الناس على حبّ قيم الخير والفضيلة، وكرّه إليهم الفسوق والرذئل.

هذه الحقيقة يعبّر عنها اليوم الشيخ جودت سعيد بروح إقبالية واضحة، فيقول: الديمقراطية هي عين التوحيد![86].

في تطوّر الشريعة

هل اكتملت الشريعة؟ الجواب بالطبع نعم؛ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً (سورة المائدة 3)، وهذه الحقيقة لا يجهلها إقبال، وهي ألف باء الإيمان بالقرآن، ولكن ما معنى الاكتمال؟

الاكتمال عند إقبال هو نضج العقل الاستدلالي عند المسلم، وامتلاكه أدوات التفكير والتطور والاجتهاد، واكتمال الوعي بالغيب فيما أراد الله أن يعلمه المسلم؛ إنه نهاية

[86] إبراهيم، منصور، حوار مع جودت سعيد بعنوان «أفكار لزمن قادم»، دار الشموس، 1999، ص 75.

عصر التقليد وبداية عصر التفكّر، ونهاية عصر المعجزات وبداية عصر العقل، ونهاية ضباب الخوارق وبداية عصر السنن.

ولكن اكتمال الشريعة بات في العقل التقليدي عكس ذلك تماماً، فقد حسمت نصوص الغيب ما كان، ويكون، وما هو كائن، إلى يوم القيامة! ولم يعد أمام المسلم إلا اتّباع النصوص المعصومة التي ما فرّط الله فيها من شيء! وهي النصوص التي تصلح لكلّ زمان ومكان تشريعاً وتفكيراً وتدبيراً وتسييراً.

وبدلاً من يقظة العقل وقيامه، سادت ثقافات بوهيمية غيبية تائهة، تشبه ما تبنّاه القديس أوغسطين في التاريخ المسيحي؛ حيث أفتى، بنصٍّ حاسم حازم، أن الكتاب المقدّس وحده من يحقّ له البيان والحسم في كلّ علوم الدنيا والدين، وأن الجغرافيا والفلك والفيزياء والرياضيات وسائر العلوم مكنوزة في الكتاب المقدّس، وليس أمام المؤمن إلا مزيد من التأمّل فيه ليدرك كل علوم الدنيا والآخرة.

وهي ثقافة سادت في التفكير الإسلامي قروناً، حتى بات من قول الفقيه:

كل العلوم عن القرآن مشغلة .....إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

الدين ما كان فيه قال حدثنا.... وما سوى ذاك وسواس الشياطين![87]

ونسب إلى ابن القيّم في الكافية الشافية:

الدين قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

العلم عندكم ينال بغيرها ..... بزبالة الأفكار والأذهان

سميتموه قواطعاً عقلية ....تنفي الظواهر حاملات معان[88]

وفي السياق إيّاه، راجت ثقافة عبادة النصوص وازدراء العقول، حتى قالوا: إن الله جعل علوم الدنيا والآخرة في سورة الفاتحة، وجعل سرّ الفاتحة في البسملة، وجعل سرّ البسملة

---

[87] الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، كتاب شرف أصحاب الحديث، ج1، دار إحياء السنة النبوية، أنقرة، ص79.

[88] ابن القيّم، محمد بن أبي بكر، متن القصيدة النونية، ج1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ص226.

في الباء، وجعل سرّ الباء في نقطتها، والنقطة فيها ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم الدين![89].

وفي الهند كانت ثقافة كهذه بالغة الانتشار في الوسط الشعبي عند السنّة والشيعة، على الرغم من أنها لا تمتلك مسانيد موصولة، ولكنّها كانت ثقافة الشارع وخطب الجمعة وأسلوب الواعظين.

قرّر إقبال أن يقول الحقيقة الكاملة، وأن يواجه بشجاعة وقوة ثقافة الإرث المعصوم الذي يوجِب على الخلف اتّباع السلف، وواجه بشجاعة تلك العبارات الإطلاقية التي تعوّدها الواعظون على المنابر: قف على ما وقف عليه الأوّلون فإنهم عن علم وقفوا، وأن كلّ خير في اتّباع من سلف، وكلّ شرّ في ابتداع من خلف، وقد اختار إقبال أن يكتب موقفه هنا بلغة النثر لا بلغة الشعر، ليكون أكثر دقةً ووضوحاً.

ولأجل ذلك كتب كتابه الهائل (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، ولعلّ من الصواب القول إن مجتمعنا الإسلامي، الذي لا يزال يختار ظلام القرون على فجر المستقبل، لم يقرأ كتاب إقبال بعد، وربّما لن يصدق ذلك الأفق البعيد الذي أراد إقبال أن يبلغه خطاب النهضة الإسلامي قبل أكثر من مئة عام.

يغنّي شباب الحركات الإسلامية اليوم كلمات إقبال، ولكنّهم لم يطّلعوا على ما كتبه إقبال في التجديد الديني، وربّما لو أُتيح لكثير من القساة التكفيريين أن يطّلعوا على ما كتبه إقبال فيه لواجهوه باتهامات الهرطقة والزندقة كما يصنعون مع كلّ أصحاب الأقلام الحرّة والأصوات الجريئة، ولكن يبدو أن قاعدة يحقّ للشاعر ما لا يحقّ لسواه ليست شأناً لغوياً؛ بل هي شأن اجتماعي أيضاً، ويُغفر للشاعر ما لا يغفر لسواه.

في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام) يطالب إقبال بوضوح بالحاجة إلى عقل إسلامي مختلف، يملك الشجاعة على الاختيار لمستقبله، لا تأسره قداسة القديم، ولا يبهره بريق الجديد.

---

[89] حديث موضوع لا أصل له شائع على ألسنة الوعاظ، ومثله ما نقله الجويباري في تفسير البصائر، ج1، ص 24، ونسبه إلى الإمام علي كرّم الله وجهه.

لقد أعلن في صيحاته عن الحاجة المستمرة لتطور الشريعة؛ إنها الحقّ الذي يتطور باستمرار؛ إنها جوهر نظريته في ديالكتيك الطبيعة، ليس من مصلحة الحقيقة أن تكتمل، إنها في جدل مستمر، إن قوتها في انبثاقها من جديد، إنها تبلي وتخلق، وتعيد الذات روحاً دافقةً كل يوم.

وقد حلّل زكي ميلاد هذه الحقيقة بقراءة منطقية أصولية: «ويرى إقبال أن العالم الإسلامي لكي ينهض بمهمّة التجديد، ويتخلّص من رواسب الجمود، بحاجة إلى الاجتهاد المطلق؛ ذلك لأنّ أحوال العالم الإسلامي، في نظر إقبال، قد تغيرت بصورة جذرية في عصره، ممّا أوجب الحاجة من جديد إلى الاجتهاد المطلق، وبواعث هذه الحاجة في نظره، هي:

1- أن العالم الإسلامي أصبح يتأثّر بما يواجهه من قوى جديدة أطلقها من عقالها تطوّر الفكر الإنساني تطوراً عظيماً في جميع مناحيه.

2ـ أن أصحاب المذاهب الفقهية أنفسهم لم يدَّعوا أن تفسيرهم للأمور, واستنباطهم للأحكام، هو آخر كلمة تُقال فيها، وأنهم لم يزعموا هذا أبداً.

3- أن ما ينادي به الجيل الحاضر من أحرار الفكر في الإسلام من تفسير أصول المبادئ التشريعية تفسيراً جديداً على ضوء تجاربهم، وعلى هدي ما تقلب حياة العصر من أحوال متغيرة، هو رأي له ما يسوّغه كلّ التسويغ.

4 ـ حكم القرآن على الوجود بأنه خلق يزداد ويترقّى بالتدريج، ويقتضي أن يكون لكلّ جيل الحقّ في أن يهتدي بما ورثه من آثار أسلافه، من دون أن يعوقه ذلك التراث في تفكيره وحكمه وحلّ مشكلاته الخاصة.

وعندما يريد إقبال أن يثبت حقيقة قابلية الشريعة الإسلامية للتطوّر، يقول: إنّ التعمّق في درس كتب الفقه والتشريع الهائلة العدد لابدّ من أن يجعل الناقد بمنجاة من الرأي السطحي على حدّ وصفه، الذي يرى أنّ شريعة الإسلام شريعة جامدة غير قابلة للتطوّر، وهكذا عندما ندرس أصول الفقه الإسلامي الأربعة المتّفق عليها، وما ثار حولها من ظلال، فإن ذلك الجمود المزعوم يتبخّر، ويبدو للعيان إمكان حدوث تطوّر جديد. وهذا ما حاول إقبال إثباته والكشف عنه عندما أراد مناقشة تلك الأصول، مبرهناً كيف أن هذه

الأصول تتناغم وفكرة التطوّر، وكيف أنها تستجيب لتطوّر الفكر الإنساني في المجتمع المعاصر»[90].

إن الفقه الإسلامي مارس في التاريخ تطوراً مستمراً، ولم يتوقف عند حدود ظاهر النص، وابتكر أدوات تطوير الشريعة بكفاءة واقتدار، واستطاع أن يبتكر الاستحسان الحنفي والاستصلاح المالكي والاستصحاب الشافعي، وكلّها أدوات حقيقية لتطوير الشريعة وتحقيق استجابتها للزمان والمكان، وبكلّ تأكيد كانت هذه الآليات هي التي وفّرت الأحكام المناسبة لكلّ زمان ومكان، وهي التي حكمت بها الدول الإسلامية في العصر الذهبي للإسلام؛ إنه إرادة تطوّر وقيام، تملك سرّ قيامها ونهضتها من جوهر النص، وإن كانت تتجاوز كثيراً من ظاهره.

وفي الواقع فإن إقبال كان واضحاً ومباشراً في تحرير هذه المسألة، وهذا ما نقرؤه في نصه الأصلي:

«والقياس، وهو المبدأ الأساسي في مذهب أبي حنيفة، إذا ما أُحسن فهمه وتطبيقه، كان، كما يقول الشافعي، بحقّ مرادفاً للاجتهاد، وهومطلق الحرية في حدود النصوص المُنزلة، ويمكن إدراك أهمية القياس، كمبدأ وأصل من أصول التشريع، إذاعرفنا حقيقة مفادها اتفاق معظم الفقهاء (كما يقول القاضي الشوكاني)على أن القياس أُجيز حتى في حياة النبي صلى الله عليه وسلّم، وإن إغلاق باب الاجتهاد هو محض خرافة ووهم مختلق أوحى به تبلورالفكرالتشريعي في الإسلام من ناحية، والكسل العقلي من ناحية أخرى؛ ذلك الكسل الذي ينشأ في فترة الانحلال الروحي، ويحيل كبار المفكّرين إلى أصنام مقدسة.

وإذا كان بعض الفقهاء، في العصور الأخيرة، قد أيَّدوا خرافة إغلاق باب الاجتهاد، فالإسلام الحديث ليس ملزماً بهذا التنازل الاختياري عن الاستقلال الفكري...

ولقد كتب الزركشي في القرن الثامن الهجري، وكان على حقٍّ في ملاحظته: إذا كان المؤيدون لهذه الخرافة يقصدون أن الكُتّاب السابقين كان الاجتهاد بالنسبة لهم أكثر سهولة، بينما ازدادت الصعوبات بالنسبة لمن جاء بعدهم من الكُتاب، فهذا هراء؛ وذلك

---

[90] ميلاد، زكي، مقال «محمد إقبال وتجديد التفكير الديني في الإسلام»، مجلة مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية، عدد كانون الثاني/ يناير، 2002.

لأن الأمر لا يحتاج إلى كبير فَهْم لترى أن الاجتهاد أصبح أيسر عند العلماء اللاحقين منه عند الفقهاء السابقين»[91].

وهكذا فقد كان موقفه من إغلاق باب الاجتهاد حاسماً وصارماً، وعدّه خرافة ومؤامرة على الإسلام، وتكليساً لفكر الإسلام، وتصنيماً للموروث التاريخي، واقترب إقبال أكثر من هذه الحقيقة، فناقش العلاقة بين الإيمان برسول الله ومحبته والولاء له، وبين الاتّباع الحرفي لما روي عن رسول الله في حياته من السنن القولية والفعلية والتقريرية، ويعجبه موقف الإمام المتنوّر أبي حنيفة، الذي استطاع أن يدرك ببصيرته أن النصوص التي وردت في السنّة محكومة بالزمان والمكان، ولا يجوز أن تكون سرمدية الدلالة في الزمان والمكان:

«والطريقة التي يتّبعها النبي هي أن يعلّم ويدرّب شعباً معيناً، ويتخذ منهم نواة لبناء شريعة عالمية، وهو أثناء أدائه هذه المهمة يؤكّد المبادئ التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية لكلّ البشر، ويطبّقهاعلى حالات ملموسة في ضوء العادات الخاصة لشعبه[92] الذي عايشه مباشرة، وأحكام الشريعة الناتجة عن هذا التطبيق مثل الأحكام الخاصة بعقوبات الجرائم، وهي أحكام إلى حدٍّ ما خاصة بهذا الشعب. ولمّا كانت هذه الأحكام ليست مقصودة لذاتها، فلا يمكن تطبيقها بحرفيّتها في الأجيال القادمة.

ولعلّ أبا حنيفة الذي كان نافذ البصيرة في الطابع العالمي للإسلام، فقد كاد ألا يعتمد على الأحاديث قدر اعتماده على الرأي، وذلك في ضوء وجهة النظر التي قدمناها آنفاً، فقد أدخل أبو حنيفة الاستحسان؛ أي التفضيل الفقهي لحكم على آخر، ممّا يقتضى الدرس الدقيق للأحوال الواقعية أثناء التفكير التشريعي.

ويُلقي هذا المزيد من الضوء على الدوافع التي حدّدت موقفه تجاه هذا المصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، ويُقال أن أبا حنيفة لم ينتفع كثيراً بالأحاديث؛ لأنه لم يكن في أيامه مجموعة مدوّنة من الأحاديث، ولكن غير صحيح القول بأنه لم يكن هناك مجموعة مدونة من الأحاديث في عهده، وذلك لأن مجموعات عبد الملك والزهري كانت مكتوبة قبل وفاة أبي حنيفة بما لا يقلّ عن ثلاثين عاماً، ولكن حتى لو أننا افترضنا أن هذه

---

[91] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 216.

[92] المقصود بالطبع العادات التي كانت سائدة في البيئة العربية قبل المبعث

المجموعات لم تصل إليه، أو أنها لم تحتوِ على أحاديث ذات دلالة تشريعية، فإن أبا حنيفة كان يمكنه بسهولة ويسر أن يجمع الأحاديث بنفسه،

لو أنه رأى في ذلك ضرورة، مثل ما فعل مالك وأحمد بن حنبل من بعده. ومن ثَم فإنني أرى بصفة عامة أن موقف أبي حنيفة من الأحاديث ذات الدلالة التشريعية هو موقف لا غبار عليه، وإذا كان المحدثون من أصحاب النزعة التحررية يقدّرون أنه من الأسلم عدم استخدام الأحاديث بدون تفريق بينها كمصدر للتشريع، فإنهم بذلك إنّما يتّبعون واحداً من أعظم رجال الفقه الإسلامي بين أهل السُنة...

والمزيد من الدراسة النابهة لما كُتب عن السنّة والأحاديث، إذا استخدمناها كدليل على الروح التي فسّر بها النبي الوحي، فإن ذلك سيساعدنا كثيراً على استيعاب قيم الحياة الكامنة في مبادئ التشريع التي عبر عنها القرآن الكريم بوضوح. هذا الاستيعاب الكامل لهذه القيم يمكن أن يساعدنا في محاولتنا لإعادة تأويل المبادئ الأصولية»[93].

ولا شكّ في أنّ موقف إقبال من السنّة ما هو إلا تحرير لموقفه من النصّ كلّه، فهو يرى أن النص نور يهدي وليس قيداً يأسر، وأنه، في النهاية، محكوم بالزمان والمكان والظروف التي نزل فيها، وكان يرى أن مصادر الشريعة التي ابتكرها الفقهاء فيما بعد ما هي إلا تقرير حقيقي لرسالة العقل في موازاة النصّ، وأنه لدى أوّل اشتباك سينحاز إلى العقل فوراً، وسيمارس ما مارسه الفقهاء الراسخون من تأويل النصّ ليستقيم عند مقاصد العقل.

وأودّ هنا أن أضيف هذه المطالعة من دراسة لي نشرتها بعنوان المسالك الخمسة لعقلنة التشريع بالنص، وهي تتصل تماماً بمنهج إقبال في التعامل مع النصّ الديني، وهو منهج الفقهاء الراسخين الذين قرّروا خمسة أبواب رئيسة لوقف إعمال ظاهر النصوص، وهي: باب النسخ، وباب المجاز، وباب التخصيص، وباب التقييد، وباب التشابه:

"أمّا المسلك الأول فهو **النسخ**، فقد كان السبيل الذي اتبعه السلف، منذ عصر النبوّة، لوقف العمل بآيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة؛ لأنها باتت لا تلائم أحوالاً جديدة للأمة، ولا يتردّد السلف الصالح بالتصريح بالناسخ والمنسوخ، وقد أفرده بالدراسة عدد

[93] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 210.

كبير من الفقهاء، أشهرهم ابن أبي شامة والنحاس ومكّي بن أبي طالب، ونقل عنهما كلّ المفسّرين بعدهم بلا استثناء.

والنسخ هو إزالة الحكم بالحكم، والمنسوخ كثير، ومنه آية الوصية وآية القبلة وآية الخمر وآية مناجاة الرسول وآية العدّة وآية تزويج الزاني، وليعذرني القارئ الكريم إذ أكتفي بإيراد أسماء الآيات المنسوخة دون شرحها درءاً للإطالة، وهي موجودة في كتب التفاسير كلّها بلا استثناء، وليس لدي على ما قالوه مزيد...

إننا نقرأ اليوم آية الوصية للوالدين، والفقهاء مجمعون على أنّه لا تحلّ الوصية للوالدين؛ إذ لا وصية لوارث. ومع ذلك، فالآية مقدسة ومعظمة ومكرمة ومظهرة، نتلوها في الصلاة، ولكن لا نلتزمها في التشريع، ولا يصحّ أن نلتزمها في التشريع، ولو عرضت على أيّ قاضٍ مسلمٍ وصية أوصى فيها المتوفّى للوالدين، لوجب عليه ردّها وإبطالها، مع أن ظاهر الآية يقول خلاف ذلك.

والمسلك الثاني الذي اعتمده فقهاء التنوير لدرء تعارض العقل والنقل هو **التخصيص للعام**، وهو إخراج فرد من أفراد من توجه إليهم الحكم بدليلٍ من نقل أو عقل، فالآيات مثلًا تأمر بالنفير في الجهاد خفافاً وثقالاً، ولكن الأعمى والأعرج مستثنيان من دلالة الآية، بدليل النص، والسجين والمحصور مستثنيان منها، بدليل العقل، والآية مثلاً تأمر من استطاع من الناس كلّهم بالحج والإفاضة، ولكن الفقه تدخّل لمنع غير المسلم من الحجّ مع أنه من الناس، وحتى في العقيدة يقول الله تعالى [إن الله على كلّ شيء قدير]، ولكن علماء الكلام كلهم قالوا إن القدرة هنا تتعلق بالممكنات، ولا تتعلق بالواجبات ولا بالمستحيلات... فهذه أمثلة على المخصوص، وهي في القرآن كثيرة جداً، حتى قال البلقيني: "ما من آية في كتاب الله إلا دخلَها التخصيص، إلا قوله تعالى: إن الله بكلّ شيء عليم".

أمّا المسلك الثالث، فهو **التقييد للمطلق**، وهو كثير أيضاً في القرآن؛ فمنه، مثلاً، قوله تعالى: [يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين]، فقد اتفق المفسّرون إلا الثعالبي على أن بني إسرائيل ليسوا أفضل العالمِين، وإنّما هي مقيدة بعالمي زمانهم!! وهذا قيد عقلي محض ليس فيه كتاب ولا سنّة.

وأماالمسلك الرابع فهو **المجاز**، وهو كثير جداً، وقد أفرده أئمة كثير في كتب مستقلّة؛ أشهرهم وأوّلهم أبو عبيد معمر بن المثنى، (209هـ)، وعدَّد فيه عشرات النصوص التي لا يستقيم فهمها على الظاهر، وأنّها وردت على سبيل المجاز، ولا يصحّ العمل

بظاهرها. ومن ذلك آيات: يد الله وعين الله وساق الله وعرش الله وناقة الله وروح الله؛ ومن السُّنة: إصبع الله ورِجل الله وحقو الله وضحك الله وتعجب الله وهرولة الله وغيرها كثير، وهي مجاز لأن الله ليس كمثله شيء، ومن الأمثلة المشهورة قوله تعالى: [واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها] فالمراد اسأل أهل القرية، واسأل أصحاب العير، وهذا كثير جداً في القرآن وفي كلام العرب، والظاهر منه غير مراد قطعاً، بل المعنى.

ومن الأمثلة القريبة على المجاز في القرآن عرش الله وكرسي الله ويد الله وعين الله وإذن الله وساق الله؛ وفي السنّة ضحك الله ومشي الله ورجل الله وهرولة الله وشبر الله وباع الله... وهي كلّها مصطلحات متناقضة مع العقيدة في الظاهر، وجماهير الفقهاء يرون صرفها عن ظاهرها واجباً شرعياً وإلّا وقعنا في الشرك...

إن الإقرار بالمجاز في القرآن هو الذي يوفر لهذا الكتاب العزيز حقّه من الاحترام والإجلال في عصر العلم؛ أمّا تنزيله منزلة النصّ التشريعي على النسق الذي تحرّر به القوانين، فسيقودك إلى نتائج متناقضة، وهو بالضبط ما نراه في اختلاف المذاهب والتفاسير، وهذا الاختلاف يحول دون استنباط أحكام نهائية بلغة قانونية حاسمة؛ بل يلزمك الاختيار من هذه المذاهب، ومن ثمّ إن اختيارنا من المذاهب في التشريع يعني أنّنا نمارس الاجتهاد الذي أمر به القرآن الكريم نفسه، ونتحرّر من قيد ظاهر النص.

أمّا أولئك الذين يصرّون على ظاهر اللفظ، ويرفضون أن يطرأ عليه أيّ نسخ، أو تخصيص، أو تقييد، أو تشابه، أو مجاز، فإنهم في الواقع يخالفون منطق الأشياء، ويخالفون أوّل ما يخالفون جماهير الأصوليين الذين قرّروا وجود هذه الحقائق في القرآن، ولم يروا أبداً أنها تنقص من قدسيّته ونوره، وقد أدّى تمسّكهم بظاهر اللفظ إلى نتائج مضحكة؛ فمثلاً عند قوله (والله جعل لكم الأرض بساطاً)، فإن إئمة كبار، كالخازن وابن عطية والقرطبي، يذهبون إلى أن الأرض مسطّحة، وأنّ القول بكروية الأرض هو جحود للنصّ القرآني...

وأمّاالمسلك الخامس فهو **المتشابه**، وهو كثير، وقد أشارت إليه آية صريحة في مطلع (آل عمران): [منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات]، وقد عرفه الفقهاء بأنه ما انقطع علمه ولا سبيل إلى معرفة غاياته ومضمونه، وعادةً ما يدخلون فيه

الأحرف المقطّعة أوائل السور، كما يدخلون فيه آيات تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث.

وعند المتشابه بالذات، كان يعتصم فلاسفة الإسلام حين يرتطمون بالنص، ويستحيل عليهم تأليفه مع مراد العقل، ويختارونه أسلوباً حكيماً لفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.....

من المؤسف أن كلّ هذه القواعد أصبحت مرفوضة لدى التيار السلفي الذي يكرّس القرآن والسنّة فوق العقل وفوق العلم، ولا يؤمن بالمجاز، ولا يؤمن بالمتشابه، ولا يوافق في التخصيص والتقييد، وبات يرى ذلك مؤشراً على خروج الأمّة من الدين ورفضها الحاكمية، مع أن تقرير هذه المسائل والاحتكام إليها هو دأب الدولة الإسلامية التاريخية، منذ عهد عمر بن الخطاب إلى قيام الحركات السلفية المتشددة»[94].

الاجتهاد ... سنّة كونية حتميّة

ولا بدّ من القول إن تطور الشريعة لم يكن عند إقبال محض تطور قانوني أو حاجة حقوقية، لقد كانت رؤيته للاجتهاد والتفكير مسألة ترتبط في الجوهر بالحرية التي هي أقدس القيم الإنسانية، وهي حرية لا تطيق العيش في الأقفاص، وهكذا فقد كانت كلمات إقبال تجري أغنية ظاهرة على لسان الهاتفين للحرية؛ حيث حلّقت كلماته في الآفاق تخفق بأجنحة كثيرة، وأصبحت نشيداً وحلماً في ضمير كلّ تائق للحرية والكرامة والمجد، واستقرّت كلماته في الضمائر مشروعاً لإحياء حركات نهضوية على اختلاف مشاربها، وغنّى قصائده كل مشروع إسلامي، من طالبان إلى أردوغان، وما بينهما في الزمان والمكان.

لقد كان يأبى الإسار في القيود العتيقة، وكانت روحه الثائرة تتطلّب في كل يوم أفقاً جديداً للعقل والبرهان، وكان يرى أن المسلم الذي اتّسع قلبه لنور الله لا يمكن أن تأسره القيود، وأن القيد، مهما كان عتيقاً، فإنه لا يمكن أبداً أن يكون مقدساً... وهيهات لمن كانت رسالته وجه الله ومجده أن تأسره القيود، وكان في غربته تلك يتطلّع بجرأة إلى السماء قائلاً:

---

[94] مقال الأساليب الخمسة لعقلنة التشريع بالنص للمؤلّف، نشر في مدونة جيرون الالكترونية يناير 2018، كما نشر في مجلة مرصد الصادرة عن مركز دراسات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ومقرها فيينا، عدد سبتمبر 2018 والمنقول هنا فقرات مقتبسة منه، وقد تمّ الفصل بالنقاط بين كل فقرتين.

مـا زال فكـري فـي سـمائك حـائراً فاحبسـه فـي فلـك مـن الأفـلاك
تـأبى علـي ملائكيـة فطرتـي ** أن أُسـتّقرَ بهـذه الأشـراك[95]

هكذا يطلق إقبال صيحته في مسامع الجيل الجديد: ويحك أيها المسلم، لا كهنوت في الإسلام؛ إنهم يعيشون على غبائك، ومن حقّك أن تأخذ فأس الخليل لتحطّم به أوهامهم؛ إنّها أقدارك التي تدعى اليوم لحملها بيمينك دون أن تنتظر ظهيراً من الدهر، لن تستطيع أن تملك قدرك إلا عندما تواجه بقوّة أساطير التاريخ العتيقة:

يـا إلهـي كـم لنـا مـن كعبـة فـي حمـى البيـت وظـلّ الحـرم
وفقاعـات قبـاب فوقهـا ** جعلتنـا ضـحكة للأمـم[96]

إن الرجل الذي يواجه الأساطير المؤسّسة للعقل الخرافي الشرقي كان يطربه أيّ نداء يوجّه ليقظة العقل، وفي لحظة ما سجل إعجابه حتى بالحركة البابية، وعدّها إصلاحاً داخل المؤسسة الدينية الشيعية المغلقة، ولست أدري إن كان قد تراجع عن رأيه هذا بعد أن تحوّلت البابية إلى الدعوة البهائية، وخرجت بالكليّة من المجتمع الإسلامي[97].

وفي هذه الاختيارات ناقشه بعمق المفكّر الإسلامي مالك بن نبي، وكذلك الدكتور محمد البهي والشيخ مرتضى المطهري، وكان الجميع يدوّنون إعجابهم بفكر إقبال، لكنهم يتوقفون بذهول عند اختياراته التجديدية.

في كلماته (شكوى وجواب شكوى)[98] يخاطب اللهَ بلسان الأمة الإسلامية، التي أدت في التاريخ أروع دور نهضوي، ويرسم ببراعة لوحاته المتتالية لدور الحضارة الإسلامية في العالم يوم كنّا رواد الحضارة الإنسانية.

---

[95] جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال الأعمال الكاملة، ج1، ص 352.
[96] جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال الأعمال الكاملة، ج1، ص 312.
[97] ناقش هذا الأمر بشكل ضافٍ أمير ناشر النعم في مقاله: الشخصيات المؤسسة للبابية والبهائية عند إقبال، نُشر على مدونة كلّنا شركاء، 2016، وفيه ينقل عن حسن الشافعي ومحمد السعيد أن إقبال تطور موقفه بعد ذلك من هذه الحركة بناءً على المعطيات.
[98] شكوى وجواب شكوى: أشهر دواوين إقبال المترجمة إلى العربية، وقد ترجمه نثراً محمد حسن الأعظمي، ثم نظمه الشاعر المصري الصاوي شعلان، وغنّت أم كلثوم فقرات منه، وقد طبع في الدار العلمية في بيروت عام 1972.

ولكن الفخر بالماضي لا يجوز أن يحول دون قيام المستقبل، وإنما نحتاج من الماضي لهيبه لا رماده، وهنا بالضبط كان إقبال يرى كارثة التفكير لدى المسلمين، ويرفع شكواه بصراحة ووضوح:

أمسيت في الماضي أعيش كأنما قطع الزمان طريق أمسي عن غدي
فإلى متى صمتي كأني زهرةٌ * خرساء لم ترزق براعة منشدِ[99]

إنها دعوة للثورة على الماضي والبناء مع المستقبل، والالتحاق بالركب الحضاري في الأمم، وترك أوهام التفوّق الكاذبة، والاعتراف بتخلف الأمة عن ركب الأمم.

لقد كان لهذا التوجّه عند دعاة الجمود معنى واحد هو رقّة الدين وقلّة اليقين، وتفضيل أوربا الكافرة على الهند المسلمة. وغضب سدنة الهيكل، واستنفر لذلك كلُّ جنود الوهم، وكان يعلم بثورته تلك أنه يهدم الأيقونات جميعاً. وتلقّى سيلاً من النقد، ولكنه أعرب بشجاعة وبصيرة عن رغبته في المواجهة، ويؤلمه أولئك الذين يلتمسون في الماضي حلول المستقبل، ويقرؤون القرآن بعيون الموتى.

وقف إقبال هيبةً ورهبةً أمام المجدّد الإسلامي الأعظم أبي حنيفة، لقد أدهشه موقف هذا الفقيه العظيم الذي أطلق رسالة العقل إلى الغاية، وأعلن احترامه للعلم والمعرفة دون تحفظ، وأوضح بجلاء أن الرسول الموصول بالغيب كان أيضاً وقافاً عند حدود العلم، يجتهد بروح متوثبة ولكنه كان يؤمن بحركة الزمان، وكان إذا تغيّرت الظروف لا يجبن ولا يعجز أن يقف أمام العالم ويقول: لقد قلت رأياً وبدا لي خلافه، وإني -إن شاء الله- لا أحلف على يمين ثم أجد غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير، وكفّرت عن يميني...[100]

لقد فعل ذلك عشرين مرة في حياته الكريمة في النص القرآني، وضعف ذلك في النص النبوي، وكان على أوفى حال من شجاعة التجديد والتطوير، وكان رائعاً في إعلان

---

[99] ديوان إقبال باعتناء الغوري، دار ابن كثير، ج 2، ص 365.
[100] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 209.

تاريخانية شريعته: كنت قد نهيتكم والآن آمركم، كنت قد أمرتكم والآن أنهاكم، إنه يؤمن تماماً بدورة الحياة وتطور المعرفة، وتغير الأحكام بتغير الأزمان:

أيهـــا الصـــادق كـــم مـــن نكبـــة قـــد نكبناهـــا بـــنصٍّ مســـند
لـــم تكـــن تعلـــم لمّـــا قلتهـــا أنهـــا دســـتورهم للأبـــد [101]

***

لقد كان إقبال لا يشكّ لحظة في قدسية القرآن ونور السنة، وكان يعدّ شعره كله انبثاقاً من روح القرآن، ولكنه كان ينكر على قومه الفهم الإطلاقي الغائب عن شرط الزمان والمكان؛ فالقرآن في جوهره وثبة روح لا تزال تطلق الهمم وتبثّ الأمل وتأتي بالعجائب، ولكن شأنه في التشريع محكوم بأسباب النزول وأسباب الورود، ويطرأ عليه النسخ والتقييد والتخصيص، ومع ذلك كله نرتله دون أن ينطفئ نوره أو يخمد لهيبه، فلماذا توقفت هذه الأمة عن سباق الإبداع الذي كانت تخوضه في ملعب العقل بعزيمة واقتدار؟

لـــه نقـــش يجـــدد كـــل حـــين فـــلا تبقـــى الحيـــاة علـــى غـــرار
فـــإن صـــوّرت يومـــك مثـــل أمـــس **** فمـــا يحـــوي ترابـــك مـــن شـــرار [102]

لقد وقف أمامنا قبل أربعة عشر قرناً بكل شجاعة ويقين، يحلف اليمين على الأمر، ثم يبدو له أنّ غيره خيراً منه فيتراجع بشجاعة وثبات، ويقول: كنت بالأمس قد أمرتكم واليوم أنهاكم، كنت نهيتكم واليوم آمركم، الإنسان أولاً، وبعد ذلك كلّ ما يكون من وحي أو كتاب، وهل نزل الكتاب وجاءت السنة إلا من أجل مصلحة الإنسان.

يقف إقبال يغازل تلك الوقفة النبوية الهائلة التي أعلن فيها النبي نسخ القرآن بالقرآن أو بالسنّة، ونسخ السنّة بالسنّة وبالقرآن، قبل أن يكتمل من عمر التشريع عشر سنين، فكيف لو أدرك الأمة بعد ثلاثة عشر قرناً؟ لقد كان حرياً بنا أن نتعلّم من شجاعته ونبله وطهره وثباته:

أيهـــا الصـــادق كـــم مـــن وقفـــة قمـــت فيهـــا ناســـخاً حكـــم الســـماء
وشـــجاعاً كنـــت فـــي تغييرهـــا يـــا لنـــا أتبـــاع شـــؤم جبنـــــــاء

---

[101] الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش، وهي في سياق كلمات إقبال الواردة في كتاب تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 209.
[102] عزام، عبد الوهاب، نظم ديوان إقبال رسالة الشرق، مرقم بالفقرات، فقرة 21.

ربّ آيـات مـن الصـرف الصـراح رتلتهـــا ألســـن المســـتغفرين
نســـخت يـــوم بـــدا أمـــر جديـــد *** وهـي فـي مصـحف ربّ العـالمين[103]

إنه أمر مؤلم أيها الصادق أننا نقرأ سيرتك قراءة ببغائية دون أن نجرؤ على امتلاك ما فيها من عزيمة وعقل ويقين، لقد نسخت حياته القصيرة إحدى وعشرين آية، وثمانية وأربعين سنّة صحيحة، أعلن أن أحكامها لم تعد حاجة الناس في قيامها ونهوضها، وظلّ يتلوها تلاوة المقدّس، وهو يقول: إنّها لم تعد تناسبكم؛ إنّها أصبحت جزءاً من ماضي الرسالة وتاريخها، فتعلموا أيها الآتون من تعاقب القرون كيف تبنون مستقبلكم استلهاماً من رسالته وليس تقليداً لعبارته؛ إنّه فهم دقيق لا تطيقه العقول المريضة:

كنـت تقضـي اليـوم مـا تمحـو غـداً تنســخ الماضـــي جهـــاراً وعيانـــاً
لـــم تـــزل تصـــحو وتمحـــوه إلـــى *** أن طـواك الـدهر والـدهر طوانـا [104]

كـان يؤلمـه مشـهد أهـل الكتـاب الـذين نصّـبوا أنفسـهم أمنـاء علـى الـدين، وربمـا كـانوا مخلصين في ذلك، وقد أثنى عليهم القرآن مراراً وقال كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب، وقال فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون...

ولكنهم جمدوا على نصوص القدماء، ولم يدركوا حركة الحياة، فاستحال علمهم سحراً وعرافةً وكهانةً، وكلّ علم لا يؤمن بالواقع يتحول إلى ميتافزيق عقيم.

لقد أطلق مشروعه ثورة على فهم السحرة والكهنة والرهبان؛ لقد كان يفهم رسالته وثورته في سياق حرب ضارية على الخرافة، وميلاد جديد للعقل:

أيهـــا الصـــادق كـــم حاربتهـــا في ضـمير الـدهر أشـكال الخرافـة
ذات يـــوم أنـــت رويـــت الـــورى *** مـن لهـذا الجيـل يرويـه جفافـه[105]

«ولعلها المحاولة الوحيدة- لتأويل الإسلام تـأويلاً فلسفياً معاصـراً، والتنسيق الذي عمل على بسطه في كتابه (**تجديد التفكير الديني في الإسلام**) يشبه بضخامته ما قام به

---

103 الأبيات للمؤلف، وهي في سياق ما قاله إقبال حول النسخ في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 211.
104 حبش، محمد، في سياق كلام إقبال في تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 300.
105 المصدر نفسه، ص 213.

الغزالي قبل ذلك التاريخ بنحو ألف سنة، في كتاب (**إحياء علوم الدين**). أمّا من حيث الجوهر، فهو أشبه بتنسيق الكندي وابن رشد في التوفيق الذي حاولاه بين نظرة اليونان الفلسفية إلى الكون ونظرة الإسلام الدينية إليه... ومهما يكن من أمر، فقارئ كتاب إقبال (**إعادة تركيب الفكر الديني في الإسلام**) لا يتمالك الشعور الطاغي بسعة علمه، وبرحابة تأمّلاته الميتافزيقية والدينية... لا يمكن إنكار ما قام به محمد إقبال من محاولة فذّة، عميقة الجذور، لم يبلغ شأوه فيها أيَّ مفكّر في القرن العشرين، لإعادة النظر في المشاكل الإسلامية الأساسية في ضوء اعتبارات حديثة».[106]

إن إرادة التطوير والتجديد في الإسلام تستند إلى جوهر هذا الدين المتدفّق بالحيوية، وقد جاء القرآن نفسه ثورة على الآبائية الجاهلية، ونعى عليهم حين قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون، ودعا إلى السير في الأرض واكتشاف السنن الكونية والاجتماعية فيها.

إن التجدّد ليس شأن النص الديني وحده، ولا هو شأن الفقه الإسلامي؛ إنه صورة الحياة التي تتجدّد كلّ يوم؛ إن الفلسفة الاسلامية تنزع إلى اعتبار الزمان معطى موضوعياً؛ أي موجوداً في الخارج، وهو روح القرآن وتعبيره المستمر: واختلاف الليل والنهار، كل يوم هو في شان...

والزمان، عند إقبال، حركة مبدعة، وليست أداء طقسياً لسيناريو مقرّر من قبل. حركة الزمان لا يمكن تصورها؛ إنها لم ترسم بعد... إنها شيء يرسم كل يوم، ولم يبلغ ألقه وغايته ومداه، وهي تتصف بالقاسية فحسب، وتمارس الانتقاء في دربها الطويلة، والزمان عند جون ماكتجارت **John McTaggar** لا معنى له؛ فكلّ ماضٍ هو حاضر أو مستقبل لآخرين، ولكن الزمان ليس ذاتاً تنفذ؛ إنه طاقة تتجدد ولا تنضب؛ الزمان ديمومة محضة؛ إنها بالضبط ما عبّر عنه القرآن بقوله: واختلاف الليل والنهار.

أليس مدهشاً أن يختار الله من أسمائه الدهر، ونقل الرازي في (**مفاتيح الغيب**) أن من أسماء الله الدهر وديهور وديهار؛ إنه اختلاف الليل والنهار؛ إنه إرادة التجدد وحيوية التفكير والإبداع والتغير المستمر؛ إنها الحياة؛ إنها سنّة الله.

---

[106] جيلالي، بو بكر، مقال نظرية الحضارة بين إقبال وابن خلدون، نشره ملتقى ابن خلدون للفلسفة والآداب، 2011/1/19.

وهكذا، فإن إقبال لا يطرح الاجتهاد والتجديد في سياق أصولي مصطلحي بحت، بل يطرحه في سياق سنن كونية لا تتغير، وبذلك فهو يفارق المنهج التقليدي في طرح مسائل التجديد؛ إنه يعدّه جزءاً من دورة الحياة الصارمة؛ إنه الديالكتيك الذي يحكم طبيعة الأشياء أطروحةً ونفياً وتركيباً، وهي الحقيقة التي تنتظم الأفكار والأشخاص.

ويتناول بروح أعمق جانب العلاقة الجدلية بين الطبيعة وبين الإنسان؛ فالطبيعة ليست ركاماً، مادية بحتة شاغلة للفراغ؛ إنها جوهر ما تمارسه من سلوك وتغيير، والطبيعة بالنسبة إلى الصفة الإلهية كالسلوك بالنسبة إلى الذات الإنسانية، وهي في النهاية سنّة الله.

الإنسان في سيرورتيه وصيرورته تطوّر بيولوجي ونفسي بلا شكّ، وقد وقف إقبال طويلاً عند ما كتبه الجاحظ وإخوان الصفا ثم فصّله فيما بعد ابن مسكويه، وهي تأملات عميقة في ظواهر الخلق، تدفعك، من دون تردّد، لاكتشاف داروين في أعمال ابن مسكويه؛ حيث يبدو ما كتبه العالم الطبيعي الهائل بلغة الأحفوريات والرقم تكراراً لما كتبه هؤلاء الرجال بالحدس والتأمّل.

لقد كتب ابن مسكويه ذلك في إطار بيولوجي، وكتب البيروني ذلك في إطار جغرافي، ثم نجح ابن خلدون في تحرير ذلك في إطار اجتماعي... وهنا تكمن روعة الفلسفة الإسلامية...

وهنا كتب إقبال: لقد كان ابداع ابن خلدون تتويجاً للفلسفة الإسلامية حتى قال فلينت: إن أرسطو وأفلاطون وأوغسطين ليسوا نظراء لابن خلدون، وكلّ من عداهم غير جدير أن يذكر إلى جانبه[107].

إن إضافة البعد الاجتماعي في الديالكتيك هو الذي جعل هذه الفلسفة تقلب العالم وتغير الدنيا، ولو أنها بقيت قراءةً بيولوجيةً للحياة، لكانت مجرّد فكرة تعتني بها المخابر، وتستند إليها تجارب الباحثين وعقاقيرهم، ولكنّها أطلقت الصرخة الاجتماعية في روح الديالكتيك، فصار تفسيراً نهائياً لشكل الحياة وروحها وجوهرها وتطوّرها، وصار تفسيراً فيزيائياً صارماً لقيام الحضارات وتلاطمها وعثارها وتساقطها.

---

[107] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 162.

ولكن علم التطور لم يأتِ بالأمل؛ بل بالحيرة والصدمة والقنوط، فلم يقدّم الموت تطوراً جديدا من الناجية البيولوجية؛ إنه سقوط وانهيار، وهنا يتحسّر إقبال على عجز العيون العاشية من قراءة الحكمة التربوية الهائلة التي يقدّمها التطور البيولوجي.

نحتاج إلى رومي جديد يبعث فينا الأمل، ويقرأ لنا عميق ما تكتبه الطبيعة في جدلها الهادر، ويعيد إنتاجه وعياً بالتطور المستمر في فهم الدين والحياة.

إنهم يرسمونها بيقين خارطة طريق البيولوجيا في العالم، ولكن إقبال يرسمها في مسار الفكر؛ فالطبيعة ديالكتيك، والإنسان كذلك، جدل متلاطم، ولكنه، في النهاية، ينتهي إلى أفق أعلى، وسيستمر كذلك، له من الماضي الذكرى والعبرة، وله من المستقبل العمل والأمل.

الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي

لا يُعرف لفقيه في الإسلام اجتهاد في النبوّة والعقل يشبه اجتهاد إقبال، فقد بدا موقفه من النبوة صادماً للتفكير التقليدي، وقد أشار بوضوح إلى أنّ النبوّة معنية بالماضي؛ أمّا

المستقبل، فإن النبوة لا تكتبه ولا ترسمه، وإنّما تبعث فيك إرادة إنتاجه وإدارته، وفرق كبير بين المتّبع حين يتلقّى المعرفة وبين المتّبع حين يقوم بإنتاجها، وكي لا نُتهم بالمبالغة، فإننا نقرأ عبارة إقبال مباشرة.

قال إقبال: إن النبوّة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوّة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يُقاد منه، وإن الإنسان لا بدّ له، في النهاية، أن يعتمد على نفسه[108].

إن إبطال الإسلام للرهبنة وتوريث الملك، ومناشدة القرآن العقل والتجربة باستمرار، وإصراره على النظر في الكون وأخبار الأوّلين باعتبارها مصدراً رئيساً للمعرفة، ذلك كلّه صور مختلفة لانتهاء النبوّة.

وفي سياق عبارات إقبال الجريئة، فيما يتصل بانتهاء النبوة واستمرار الإشراق، يمكننا القول إنه الرسول الذي جاء ليخرج الناس من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.

انتهت النبوّة بوصفها قيادة من سجاف الغيب للإنسان الحائر، ولم يعد هناك حاجة حين نصنع الطائرات والسيارات والجسور أن نسأل الأنبياء ما لونها وما شكلها، وإن الطير تشابه علينا، ولم تعد هناك حاجة أن يراوح الأنبياء بين السماء وبين الأرض من أجل الإجابة عن أسئلة الناس؛ لقد رُفعت الأقلام وجفّت الصحف، وانتهى عصر الخوارق وجاء عصر العلم، وانتهى عصر الغيب وجاء عصر الشهادة، وانتهى عصر الوحي وجاء عصر الإنسان.

لقد بدا موقف بني إسرائيل مضحكاً وهم يتعاقبون في سؤال موسى بن عمران عن البقرة، عن عمرها ولونها وطبعها وصفاتها، وبدا موسى رهقاً من التناوس بين السماء والأرض وهو ينقل لهم ما يستجدّ من وصف البقرة في عمرها ولونها وشكلها، وعكست الآيات شكل أمّة غبية كسولة خاملة، ومع أن القصة تتصل بمسألة عدالة وقضاء، ولكن الأمة المأسورة بالغيب باتت عاجزة عن التقدّم خطوة واحدة في إصلاح نظامها القضائي، والوصول إلى حكم فصل في مسألة جناية وقعت على رجل من بني إسرائيل؛ فما فائدة النبوة في سياق كهذا؛ إنها لن تنتج الإنسان الحقيقي؛ إنها بعض ترف الإنسان الكسول الخامل، وقد بات واضحاً أنه لن يملك في سياقه هذا أيّ توجه نحو المستقبل،

---

[108] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 198.

وأنه سيستأنف ألف عام أخرى عاجزاً غبيّاً لن يستطيع تأسيس نظام قضائي حقيقي يقوم على العقل والبرهان.

والاجتهاد، عند إقبال، وريث النبوّة، وعنوان ختمها[109]، ومراراً وقف بثبات وشجاعة أمام رسول الله يستلهم رسالته في القيام والنهضة؛ فالمطلوب ليس استنساخ تجربته، وإنّما خلق تجربة جديدة؛ والسنّة ليست تقليد الأنبياء وإنما اتّباعهم، وفرق ما بين التقليد والاتّباع أن التقليد ينصبّ على النفوس المطموسة التي لا تحسن إبداعاً، ولا تجيد اختراعاً؛ أمّا الاتّباع، فهو اتباع منهج وسلوك، ولا يكون المرء متّبعاً حتى يخلق تجربته بيديه!

ليس المطلوب أن تهدم أوثانه، لقد هدمها بيديه، ولكن المطلوب أن تهدم أوثانك أنت، ليس المطلوب أن تقرأ برهانه، بل المطلوب أن تنتج برهانك أنت؛ إنه رجل الرسالات الباقيات:

أيها الثائر في أوثانه ... يتحدى الدهر طوفاناً وموجاً
أنا في الهيكل فامنحني إذن *** فأسك الجبار إقداماً ووهجاً[110]

النبوّة الخاتمة ميلاد العقل الاستدلالي، هكذا قال إقبال؛ إنه اليوم الذي أعلن فيه الرسول الانتقال إلى عصر العلم، وحدد مكان النبوّات مصابيح إرشاد وليست أقفاصاً على العقل، وتجارب ملهمة وليست نصوصاً ملزمة، ومقوداً لأهل البصيرة وليست مركباً للعميان:

أيّها الخاتم مجد الأنبياء ... نورك الفيّاض شلال السماء
إنّما الوهم الذي حاربته *** عاد فينا محض بؤس وشقاء

يتقدم إقبال بثقة وشجاعة، ويطرح على الرسول الأسئلة الصعبة التي نتكاتمها وهي تغلي في ضمائرنا، حاضرة في قلق جيل كامل، تعصف ذاته وتذرو رياحه وتهزّ وجوده، لماذا لم تنجح النبوّات في تغيير الإنسان؟ وهل هناك أسرار في الكتاب لا تزال مقفلة مغلقة؟ وهل علينا ان ننتظر قروناً أخرى حتى تظهر حقائق التنزيل التي تبدو عيوننا عاشيةً عنها، فلا نرى لها أثراً في إنقاذ الحياة.

---

[109] حمدي، رضا، مقال «إسلامية المعرفة»، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد 84، ص 99.
[110] نظم محمد حبش، وكذلك الأبيات التالية، وهي في سياق كلام إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 15.

إنها أسئلة جيل كامل يطرحها بين يديه ثائراً صاخباً، ولكنه يدرك هيبة النبوة ومقام الرسالة والرسول:

يـا رسـول الله يـا مـن وجهـه ألـف مرحـى يـوم ألغيـت الخرافـة
إنّمـا النـور الـذي أوقدتـه *** عـاد إرهاصـاً ووهمـاً وعرافـة

رسالتك أيها النبي الخاتم أكبر من أن تكون دفتراً للنظام الداخلي الذي يطبقه الموظفون بلا نور من العقل، ولا بصيرة من العرفان؛ السماء صحائف حكمتك والنجوم معالم إشراقك، تتدفّق الحكمة في قلبك من الوحي الأمين، تردّدها روحك البيضاء فتشرق في نفوس محدّثيك حين يتلألأ وجهك كأنه قطعة قمر.

مـا النبـوات التـي كانـت لكـم غيـر أشـواق وأذواق ونـور
أشـرقت شـوقاً علـى أسـماعكم *** فجـرت أنغامهـا فـوق السـطور

لقد كنا نتابعك بشغف وأمل أيّها الرسول المجيد، وكنّا نرقب كلماتك المنيرة في كلّ حدث جديد، لم نكن نشكّ في أنّك تملك حلّ مشاكلنا الرهيبة وأنت تشرب فنجاناً من القهوة؛ فالوحي بين معطفيك، ولديك الخط الساخن مع الله؛ إن أنت إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى، ولكن لماذا اخترت الرحيل أيها المعلم؟ وما حكمة انتهاء النبوات؟

فلمـاذا ختمـت أسـرارها رغـم مـا يشـهده العـالم هـذا
ولمـاذ طويـت أنوارهـا *** ولمـاذا ولمـاذا ولمـاذا؟

هو ذا العالم بصخبه وطيشه لم يتغير على الرغم من قوافل الأنبياء التي لم تتوقف، وها نحن نحمل ميراث النبوات جميعاً، ولكننا لا نزال آخر الأمم، وها هي تسبقنا أمم ليس لها من النبوات نصيب، ولا تعرف في تاريخها أولي عزم من رسل وأنبياء، فما معنى أن يكون ذلك كلّه؟ ولم لا تنهض بنا اليوم رياح النبوّة؟

كيف تودّع العالم أيها المعلم الكبير، وتعلن ختم النبوّة ولمّا تكتمل رسالتك بعد؟ وكيف يكون ختم النبوة والناس ما زالوا في غمرات يلعبون؟ إنني أمسك بمعطفك، وآخذ بحقوك أيها المعلّم، فأخبرني ما معنى هذا كلّه؟

ويتقدّم إقبال في جواب الشكوى يحمل وصية المعلّم الرسول في روحٍ خلّاقة من البيان والبرهان، يشرح أسرار ختم النبوّة والتحوّل من عالم الغيب إلى عالم العقل

لا تلمني يا صديقي إنني ... خدمة للعقل أنهيت النبوّة
لم أشأ أرضى لكم أوهامكم *** فخذوا أقداركم عني بقوّة

مجدكم في الأرض لا ترسمه ... جثث تسكن في جوف المقابر
فخذوا أقداركم وانتبهوا ... واصعدوا أنتم على تلك المنابر

أنا لم آتِ إلى هذا العالم لأسوق قطيعاً هائماً ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون؛ لقد جئت إلى هذا العالم وعيوني ترنو إلى جيل من الأبطال أصحاب البصيرة، يقودون الحياة بأمل ويقين، وتشرق في أمانيهم روافد الحكمة.

أنا مستمرٌّ فيك أيها المسلم، أنت هو النبوّة المتدفقة، ليست النبوة تراتيل وتمائم، ولا هي رقى وتعاويذ؛ إنها ثورة الذات وطموح الحياة، جذوتها أنت ومصباحها أنت، نحن ذكراك ولكننا لسنا ذاتك، نحن آباؤك ولكننا لسنا أصنامك، العالم مستمر وعليك أن تدرك مكانك كلّ يوم:

إن مصباحي الذي أوقدته ... نورك الباقي على مرّ العصور
إنما زيتك من يسرجه *** ليس زيتي وأنا ابن القبور [111]

يطرح إقبال فهماً فريداً لمسألة النبوّة، يتجاوز السياق التقليدي في مسألة الغيب والشهود؛ إنه يطرح أسئلته بصيغة حقوقية مباشرة تجمع بين الحقوقي والشاعر، وتقارب ما بين الغايتين.

وعلى الرغم من موقف إقبال البالغ الاحترام للنبوّات كلّها، واعتبار تاريخ النبوة هو سياق التاريخ الإنساني، وأن الأنبياء هم قادة الإنسانية في مشوارها الطويل، ومواقفه المشهودة في الإيمان المطلق بالنبوّات خزائن لمعرفة الله وبوابات لنعيم الجنّة، ولكنه ينظر إلى نبوّة الرسول الكريم من منطلق آخر.

---

111 هذه الأبيات وما سبقها نظم محمد حبش، وهي في سياق ما شرحه إقبال عن ولادة العقل الاستدلالي وختم النبوة، انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 149-150، وكذلك: ديوان إقبال أرمغان حجاز باعتناء الغوري، ج 2، ص 533.

لقد رأى أنّ النبوّة الخاتمة هي ميلاد العقل الاستدلالي، ونهاية العقل الاتّباعي، مولد الأحرار ونهاية القطيع، مولد الفكر ونهاية الرواية....

في مقاله: «سؤال التجديد وراهنية محمد إقبال» كتب عبد الله أدلكوس في وصف منهج إقبال في إحياء العقل الاستدلالي: «من أجل ذلك، كان إقبال يروم ويؤكّد "ضرورة إعادة تركيب الفكر الديني، بما يفضي إلى تقديم تفسير جديد غير إيديولوجي لمقولة "الإسلام صالح لكلّ زمان ومكان"؛ أي قائم بالأساس على أنساق معرفية جديدة لا يمكن بلوغها دون رؤية للعالم مختلفة جذرياً". وربّما هذا ما دفع بأحد منتقديه، وهو الدكتور محمد البهي، في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) إلى الاعتراف بمكانة الرجل العلمية، وبقوّة طرحه. ففي نظر الناقد، كان إقبال دقيقاً عندما عبّر عن حركته الفكرية بـ "إعادة بناء الفكر الديني" في الإسلام، دون التعبير بـ "الإصلاح الديني"؛ لأنّ أيّة محاولة إنسانية تدور في محيط الإسلام لا تتعلق بتعديل مبادئه طالما أنّ مصدره، وهو القرآن، له صفة الجزم والتأكيد والأبدية، وأيّة حركة إصلاحية في الإسلام، بعد ذلك هي، إذاً، في دائرة الفكر الإسلامي حوله، وفي دائرة أفهام المسلمين لمبادئه. وليس هناك تطوّر للإسلام نفسه؛ لأنّ الوحي به قد انتهى على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. كما خُتمت برسالته الرسالة الإلهية، ولا يترقّب، إذاً، أن يكون هناك إصلاح ديني في الإسلام على النحو الذي تمّ بصنعة مارتن لوثر في المسيحية، فعدم التثبّت في رواية الإنجيل، وعدم الاتفاق على رواية واحدة مؤكّدة له، أتاح منافذ عديدة، فدخل منها إلى رسالة المسيح عادات وأفهام أصبحت، على ممرّ الزمن، جزءاً لا يتجزّأ عن المسيحية، ومن ثَمَّ أتاح فرصة لإصلاح لوثر، ومن على شاكلته»[112].

ومع أن إقبال كتب هذه التساؤلات بلغة حقوقية صارمة، لكنه عاد إلى عالمه الروحي يرسمها بظلال الشاعر، ووقف بثبات وشجاعة أمام النبيّ الكريم يستلهم رسالته في القيام والنهضة. فالمطلوب ليس استنساخ تجربته، وإنما خلق تجربة جديدة، والسنّة ليست تقليد الأنبياء، وإنّما اتّباعهم، وفرق ما بين التقليد والاتّباع أن التقليد ينصّب على النفوس المطموسة التي لا تحسن إبداعاً ولا تجيد اختراعاً؛ أمّا الاتّباع، فهو اتباع منهج وسلوك، ولا يكون المرء متّبعاً حتى يخلق تجربته بيديه.

---

[112] أدلكوس، عبد الله، مقال نشره الباحث في مدوّنة مؤمنون بلا حدود، أيار/ مايو 2015. https://www.mominoun.com/articles

إن قوّة النبوّة، إذاً، عند إقبال، ليس في أنها أجابت عن أسئلة الماضي والحاضر والمستقبل كما هو الشائع في تصوّر الفقهاء؛ لقد نظر إليها من أفق آخر؛ إنها ميلاد العقل الاستدلالي؛ إنها اللحظة التي بات من الممكن للعقل أن يمتلك رشده وأن يكفّ عن التماس طريقه ودربه من روايات السماء؛ إنها اللحظة التي يحلّ فيها الشهود محلّ الغيب، والعقل محلّ النقل، والعلم محلّ الخوارق، والبرهان محلّ العجائب.

يقترب منه في منصة حضوره وقراره، لقد فهمت مرادك تماماً حين تريدني أن أعتمد على زندي ويدي، وأن أستضيء بنور العقل وبرهانه، ولكن ما هي إذن تلك النبوة التي ملأت العالم بالحب والأمل.

إنها أشواق وأذواق، كنت ترسم فيها صورة الإنسان الأعلى، في قيمه وأخلاقه وطهارة روحه وسعادة فؤاده، ومن الهوان أن تهبط بها لتكون مجرّد أنظمة إدارة وقضاء واقتصاد:

المدارس التي تملأ المدن القديمة تنتشي فيها برائحة التاريخ ونسائمه وذكرياته، ولكنها باتت عاجزة عن حمل رياح التغيير، ولم تستطع أن تقدم في ركاب الحداثة ما يحتاجه المسلم في رسالة القيام؛ لقد باتت طافحة بالنصوص والروايات، لكنها تقرأ الحاضر بعيون الموتى، وتتحدث عن المستقبل بصيغة الماضي المستمر، وباتت خيولها بلا أرجل، وأجنحتها بلا ريش، تجترّ ماضيها وتعجز عن الوثوب إلى الحاضر؛ إنها تحتوي في مفرداتها روائع الحكمة، وماء الحياة وترياق الحكمة، ولكنها غائبة عن روح العصر، لقد تحوّل اجترار هذا الماضي إلى حبط يقتل، أو يكاد، وقد بشمن وما تفنى العناقيد[113].

أيّها الشاهد ما للمستقى ... صار سقيا من دم مرّ وسم
إن ماء المزن ترياق الحياة *** ربما يقتل حبطاً أو يلم [114]

إن الأنبياء لم يكتبوا فلسفةً عميقةً إنّما عزفوا على أوتار صحيحة، الفلسفة نظريات والدين تجربة حيّة وتفاعل واتصال وثيق. وهو آخر ما انعرجت عنه شفتا محمد قبل رحيله[115].

---

[113] مقتبسة من بيت المتنبي: نامت نواطير مصر عن عناقدها... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

[114] الأبيات من نظم محمد حبش وهي في سياق ما شرحه إقبال في ختم النبوّة وولادة العقل الاستدلالي، تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 151 وما بعدها.

[115] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 140.

إخاء الأديان

لم نعثر على هذا العنوان بعينه في أدبيات إقبال، ولكنه يعبّر بوضوح عن منهج إقبال الذي طرحه مرّات كثيرة، وربّما كان أوضح صورة لمنطق إقبال في إخاء الأديان هو ما قدمه في ديوانه الكبير (**رسالة الخلود**)، أو كما سمّاه بالفارسية (**جاويد نامه**)[116].

وجاويد نامه، نصٌّ شعري نظمه إقبال على وزن المثنوي، وهو من أطول وأشهر منظوماته كلّها، وقد نشره في عام (1930م). تُرجم هذا المثنوي ترجمات عدّة، نذكر منها: ترجمة آنا ماري شيمل إلى الألمانية والتركية، ونُشرت الترجمة الألمانية في عام (1957)، ونُشرت الترجمة التركية في أنقرة عام (1958م). وبالاشتراك مع محمد مقيم ترجمت إيفا ميروفيتش المنظومة ونشرتها في باريس عام (1962م)، كما ترجمها آرثر آربري إلى الإنجليزية ونشرها في لندن عام (1966م)، قبل أن ينقلها إلى العربي حسين مجيب المصري عام (1947) وينشرها تحت عنوان (في السماء).

ففي ديوانه هذا يدوّن إقبال فكره وفلسفته في رحلة روحانية غنية يطوف فيها بين الأفلاك التسعة، ويتحدث في كل سماء إلى حكيم، ومن المدهش أن حكماء إقبال وفلاسفته لا يعكسون نمطاً متطابقاً، كأنبياء المعراج مثلاً؛ بل إنها كانت جولة عجيبة التقى فيها إقبال بالأديان كلها، مؤمنين ووثنيين وملاحدة، وأنبياء وطواغيت، وقديسين وأبالسة، ومتقين ومستكبرين، ولكنه تمكّن من حشد الحكمة على أفواههم جميعاً في منصّات السماء التي كانت تفرد لكلٍّ منهم منصّةً ومنبراً.

---

[116] يؤسفني أن أقول إن هذا الديوان الرائع بفكرته الفريدة وموضوعه الإنساني الجامع لم يحظَ بالاهتمام الذي يليق به، والنظم الذي قدمه حسين مجيب المصري ضعيف جداً، ولا يشبه في شيء الشعر الجزل الذي قدمه الصاوي شعلان وزهير ظاظا، وأنا أدعو الأخ زهير لإعادة نشر هذا الديوان بلغته الشعرية الجزلة وإحياء المعاني الفريدة التي يحملها الديوان في إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

يبدأ إقبال بمناجاة عميقة، لحائر يبحث عن نور الحق، وفي غمار مناجاته الصادقة يظهر لها فيها جلال الدين الرومي، الذي سيكون مرشد الشاعر ورفيقه في معراجه الفريد، وينطلق المشوار إلى السموات في رحلة العرفان واليقين.

ويعكس جلال الدين الرومي، في معراج إقبال، دور جبريل في معراج محمد؛ فهو المرشد والدليل، وفي بريق عينيه سيتمكن إقبال من قراءة التفسير الصحيح لرسالة الحكماء والفلاسفة والأنبياء، الذين سيقابلهم إقبال في معراجه السماوي العجيب.

في القسم الأوّل يزور إقبال القمر، وهناك يجد الحكيم الهندي جهان دوست (Jahan Dust) يمارس اليوغا الهندية، ويحدّث إقبال عن السلامة الحقيقية في هذا العالم، التي تكون باتحاد العقل والقلب والمادة والروح.

ويعرف الهنود الحكيم جهان دوست باسم صديق العالمين، ولا شك في أنّ هذا الاستهلال يكشف مراد إقبال في معراجه الروحي، الذي استطاع من خلاله أن يؤسس صداقة ومحبة مع كلّ الحكماء والشعراء والفلاسفة في الأرض.

ومع أن إقبال كان يعيش صخب الغضب الهندوسي وطيشه، وما أفرزه من نزعة انفصالية عن القارة الهندية بعد سلسلة من المواجهات الدموية بين المسلمين والهندوس، ولكنّ إقبال نجح في تحييد الحكمة عن السياسة والفلسفة عن المصالح، وحاول الدخول إلى عمق الحكمة الهندوسية، وروعة ما تقدّمه تلك الحكمة العتيقة من صورة النيرفانا الأخيرة التي يحاول الناسكون أن ينجزوها على الأرض بالمكابدة والمجاهدة وتزكية النفس.

ثم يذهب إقبال ورومي إلى وادي جرغميد، وهناك يلخّص إقبال لقاءه بالأنبياء الأربعة بوذا وزرادشت والمسيح ومحمّد، ويقدّم مجموعة رائعة من إلهاماتهم العظيمة التي يتبعها الملايين في الأرض، ومع أنه لا يلتقي بهم، لكنه ينقل عن كتبهم، ويضيف أفقاً فريداً في نقل معارفهم ونبوءاتهم، فينقل حكمة بوذا على لسان فتاة راقصة، فيما ينقل حكمة زرادشت على لسان أهرمن، والعجيب أن أهرمن هو الإله السلبي في العقيدة الزرداشتية، وهو نقيض أهورا مزدا الذي يحمل الخير للناس، وينقل عن المسيح على لسان تولستوي؛ أمّا التعرف على النبي محمّد، فينقله على لسان أبي جهل!!

ومن العسير أن تستنبط تعليلاً منسجماً لموقف هؤلاء الأربعة المتناقضين للتعبير عن ذوات متشابهة، فما الذي يجمع فتاة راقصة باهرمن وتولستوي وأبي جهل، فيما نريد

التعرّف على أربعة من الحكماء التاريخيين الهائلين بوذا وزرداشت والمسيح ومحمّد؛ إنه في الواقع سيناريو غير عادي لتفسير التاريخ، يشبه الاختيارات الهوليودية الصاخبة لتفسير الواقع.

ومن المؤكّد أن إقبال قصد إظهار أجود ما في هذه الرسالات، واختار طرقاً غير متشابهة للتعبير عنها، ولعلّ القارئ الكريم يستغرب أن يكون أبو جهل هو من يشرح طبيعة الرسالة المحمدية. وفي الواقع، إن إقبال أراد أن يسمع الناس سبب اعتراض قريش على الرسالة ومعانيها الإنسانية في المساواة والحرية والإخاء، وهي المعاني الإنسانية النبيلة التي كان ينكرها الناس آنذاك، بوصفها طيشاً صبيانياً، لكنّها باتت اليوم على رأس حقوق الإنسان في العالم كلّه.

وفي جولاته التالية، ينتقل إقبال بين المريخ وعطارد والمشتري وزحل، ثم يصل إلى ما وراء الأفلاك، ويلتقي خلال ذلك بكثير من الأنبياء والحكماء والفلاسفة والمصلحين، ويلتزم طريقاً واحداً في اقتباس الحكمة والنور من كلِّ واحد منهم، ويؤكّد أنّ الحكمة والنور قدر يتشارك فيهما البشر جميعاً، وأن من العجز أن يصمّ المرء أذنيه عمّا أودع الله في العالم من حكمة ونور في قوافل الأنبياء، ومعابد الأديان117.

وفي «فلك المريخ» يشاهد إقبال المدينة الفاضلة والعالم المثالي: كلام سكانها حلو كالعسل، الحُسنُ في وجوههم، والرقّة في شمائلهم، بالهم ليس منشغلاً بحُمى الكسب، فهم يعرفون سرّ كيمياء الشمس، يستخلص كل من يريد الفضة والذهب من النور مثلما نستخلص نحن الملح من ماء البحر، وهدف العلم والفن هو الخدمة لا غير، فلا أحد هنا يزن الأعمال بالذهب، فليس لهذه الأصنام من سبيل إلى هذا الحرم[118].

وفي «فلك المشترى» تظهر الأرواح الجليلة، فيتحدث إلى الحلاج الشهيد، كما يحاور غالب الشاعر الهندي، ويصف إقبال هذه الأرواح بأنها تلك التي رغبت عن البقاء في الجنّة وفضّلت أن تجول إلى الأبد. ويصف الأستاذ محمد السعيد جمال الدين هذا المشهد بأروع المشاهد في رسالة الخلود[119]؛ فمن الناحية الفكرية يناقش إقبال مع هذه الأرواح

---

[117] الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ص 261.

[118] ديوان رسالة الخلود (جاويد نامه)، وهو موجود في الأعمال الكاملة ديوان إقبال، ج2، ص 137.

[119] ديوان رسالة الخلود (جاويد نامه)، ج 2، ص 163.

قضـايا غايـة فـي الأهميـة، تتعلـق بالفـاني والبـاقي، والوجـود والعـدم، والقـدر والحقيقـة المحمدية.

ويمثل «فلك زحل» آخر الأفلاك في هذا العالم، وإقبال بذلك يقتفي أثر عبد الكريم الجيلي في معراجه؛ حيث عرج من المشترى إلـى زحـل، ولكـن إقبـال يختلـف فـي تحديـد طبيعـة هذا الكوكـب؛ فـالجيلي يـرى أنّ الله خلـق سـماء زحـل مـن نـور العقـل، وجعلهـا المنـزل الأفضل، فتلوّنت بالسواد إشارةً إلى سؤددها والبعاد.

ولكن ماذا قصـد إقبـال بهذا الجمهور الـذي تخيّره فـي الأفق الأعلـى؟ لا يمكـن أن يكـون إقبال قد حشد بلا وعي زنادقة التاريخ الإسلامي الذين مسّ السيف رقابهم، لقد كـان فـي الواقع يريد أن يعتذر لهؤلاء الأحرارا الذين حققوا الأفق الأعلـى لحريـة الـرأي والفكـر، ودفعـوا حيـاتهم ثمنـاً لهـذه القيمـة المقدّسـة، وأرهقـوا الطواغيـت بثبـاتهم علـى أفكـارهم ورسالاتهم.

وفي وعيه بإخاء الأديان ينطلق إقبال من قوله تعـالى [إن الله واسـع عليم] [سـورة البقـرة 115]. وقد بنـى إقبال على هذه الحقائق القرآنية موقفاً في غاية الشجاعة والتسامح، وقال بوضوح:

إن الصـلاة بوصفها سلوكاً بشـرياً ومنزعـاً إنسـانياً ظهـرت فـي صـور كثيـرة: [ولكلّ أمّـة جعلنا منسكاً هم ناسكوه] [سورة الحج 67].

إن أشكال العبادة لا ينبغي أن تكون محلّ نـزاع، فـالقرآن الكـريم أخبـر أن الله يتسـع لكـل السالكين إليه، ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله[120].

وهذا الفهم الذي حمله إقبال يعكس الروح الإنسانية التي تحلّـى بهـا، وهـو مـا أكّـده القرآن الكريم في قوله تعالى: [إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بـالله واليوم الآخر وعمل صـالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون] [سورة البقرة 62].

[120] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 106.

أمّا القبلة التي نتوجّه إليها في الحرم الشريف، فهي ذات بعد اجتماعي يحقّق التواصل والمساواة، ولا يمكنني أن أفهم أن الله أقرب إلى مكّة من أيِّ مكان آخر، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

ويتحدث إقبال عن إيمان الأمم، فلا ينازع فيه. لقد نصّ القرآن بوضوح: ولكلّ جعلنا منسكاً هم ناسكوه، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً؛ إنّها إذاً نوافذ ترى فيها مقلة العابد وجه الله. وفي قراءته العابرة للثقافات كان يؤكّد حقيقة وحدة الشهود التي اقتفى فيها أثر معلميه الكبار[121].

وفي إشارة جدّ واضحة لمعنى المساواة الذي يقدمه الإسلام، يشير إقبال إلى عمق المساواة في الإسلام، وهو فهم يتعذّر على إدراكه بعد أن حسم أمره في تصنيف الناس، وأخرج المنبوذين من دائرة الإنسان؛ إنها ثورة روحية هائلة أن يقبل البرهمي الارستقراطي الوقوف الى جانب المنبوذين في صلاة واحدة!![122].

وتطوف تأمّلاته بين الشرق والغرب، ويجتهد أن يقرأ لوحة الإيمان على كلّ الشواطئ؛ إنها الفطرة والعقل؛ إنها شيء لا يعتنقه الناس بسبب مضاء سيوف الفاتحين ولاحتى قوة براهينهم؛ إنه شيء يتدفّق من داخل الإنسان بوصفه مشروع الله وبرنامجه في الأرض؛ إنه شيء يرتبط بالعجينة الأولى التي فطرها الله بيديه، ونفخ فيها من روحه، ونشرها على قدمين وقال لها: ألست بربّكم؟

وإقبال يتفهّم الحيرة التي تلازم الباحث عن الحقيقة؛ فالحقيقة ليست حسماً صارماً يمنح اليقين ويلقي بالآخر في دائرة الوهم، واللحظة التي يكتشف فيها المرء الحقيقة لا تطول؛ إنها سرعان ما تتحول؛ إنها تقرّ لحظات ريثما تنضج الأسئلة الجديدة وتبدأ زلزلة العقل من جديد.

إنه يتوقف عند وايتهد في عبارة ذات دلالة عميقة: الكون ليس حقيقة قارّة... إنّه جدل متلاطم، ثمّ يعيد اكتشاف هذه الحقيقة عند برغسون الذي بنى فلسفته على مبدأ أن الحقيقة هي حيوية حرّة خالقة لا يمكن التنبّؤ بها.

---

[121] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 108.
[122] محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 111.

وهنا يسجّل إقبال بريشته صيحة نيتشه كما هتف بها زارا (Zoroaster) العائد من الجبل. الكون يتجدّد كل يوم، والحقائق تعيد إنتاج ذاتها؛ إنه العود الأبدي... . وأفكارك التي تكرّرها بلا سأم، والسوبرمان نفسه... حياتك كالساعة الرملية تمتلئ وتغور ولن تنتهي إلى الأبد؛ أنت حبة ستتلألأ إلى الأبد.

اليقين والحيرة يتلاطمان، لكنهما يتكاملان أيضاً. ولا معنى للمعرفة بلا حيرة وبلا يقين، ولذلك كانت ضراعة العارفين على نسق ما أنشده ابن الفارض:

زدني بفرط الحب فيك تحيّرا وارحم حشا بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى[123]

وينقل إقبال عن الشاعر الفارسي عرفي:

إذا لم تعد ترى السراب فلا تفرح، لأنك فقدت الشوق الى الريّ، الوهم ضرورة لحيوية الحياة...[124].

لقد كان يبحث عن الإيمان حتى في أشدّ عبارات الملحدين ضياعاً وصخباً، وحين وقف أمام ذكرى الحلّاج المصلوب، وقرأ بعناية أسماء الفقهاء والمفتين والقضاة الذين أفتوا بصلبه، والأدلّة المترافدة التي سطروها للحكم على زندقته، ترك كلّ ما حرروه، واختار موقف ماسينيون في مراجعاته وثائق صلب الحلاج، وقال باحترام وهيبة: إنّه الولي الشهيد دون ريب! وهو الذي لم يشأ أن يكون وجوده منفصلاً عن الذات الخالدة![125].

لقد صرّح بقوله أنا الحق، ولكنه لم ينكر تنزيه الله، وبشجاعة لا مثيل لها وقف أمام خشبة الصلب وأصرّ بجرأة على بقاء النفس الإنسانية ودوامها في ذات أعمق بعبارة قوية على الدهر: أنا من أهوى ومن أهوى أنا!

هكذا رأى إقبال أن صَلْب الحلاج يومٌ أسود في تاريخ الإسلام: إنه اليوم الذي حقَّقَ فيه التزمّتُ نَهَمَه في الانتقام من حقِّ الإنسان في التعبير والفكر. إنه أكفر أيام الأمَّة بالهُدى الربَّاني الذي نادى به القرآن في الآية الكريمة: [لا إكراه في الدين] [سورة البقرة256].

---

[123] عبد الفتاح، علي، ديوان ابن الفارض، ص 29.

[124] كذا نقلها المعلم جودت سعيد من كلام إقبال عن الشاعر عرفي، ولكنني وجدتها عند فولتير في كتاب فولتير ص 22، تأليف أندريه كريسون.

[125] إقبال، محمد، تجدد التفكير الديني في الإسلام، ص 130.

إشراقُه كان من لون فريد. لم يطقْ أن المعرفة شيء أدركه الأوَّلون لأجله، وأنّ عليه أن يبصم على ما تخيَّروه لأجله. لقد كان يريد أن يمشي بنفسه في الوادي ذاته. أراد أن تدمى يداه بأشواكه، وأن يذوق نشوة وصاله ولهيب جفائه؛ حيث يحمله اليقين على أن الوجود الحقّ هو هو: «حقِّقْ لا ترى إلا الله»[126].

لم يرَ في الموجودات إلا أثر الموجِد، ولا في الخلق إلا نفحة الخلاق:

جُبِلَتْ روحُك في روحي كما ... يُجبَل العنبرُ بالمِسْكِ الفَتِقْ
فإذا مسَّكَ شيءٌ مسَّني ... وإذا أنتَ أنا لا نفترقْ[127]

ورواه عنه الذائقون بعبارة أخرى:

مُزِجَتْ روحُك في روحي كما ... تُمزَجُ الخمرةُ بالماءِ الزُّلال
فإذا مسَّكَ شيءٌ مسَّني ... وإذا أنتَ أنا في كلِّ حال[128]

إنه خلود الذات حين تتصل بالله، ويتأكد ارتباطها به صدوراً وفيضاً، كصدور الكلام من المتكلّم والنفس من المتنفّس، والظلّ من الذات، فمن كان هذا ارتباطه بالله فأنّى له أن يموت؟

قد تحقّقتُكَ في سرّي فناجاكَ لساني
فاجتمعنا لِمَعانٍ وافترقنا لِمَعانِ

إن يكنْ غيَّبَكَ التعظيمُ عن لَحْظِ العِيانِ
فلقد صيَّرَكَ الوَجْدُ من الأحشَاء دانِ[129]

لم يكن الوصال عنده محض إطلالة على مرابع المحبوب، لقد كان فناءً فيه واستغراقاً في وصاله:

---

[126] أبو غزالة، حازم نايف طاهر، الدرر الغزالية شرح الحكم العطائية، ص 60
[127] عيون السود، باسل، ديوان الحلّاج، ص 155.
[128] المصدر نفسه، وكذلك الأبيات قبلها، ص 160.
[129] طوطاو، الشريف، المنهج النقدي في فلسفة أبي حامد الغزالي، مرقم بالفقرات 1276.

يـــا نســـيمَ الـــريحِ قـــولي للرَّشَـــا لـــم يَزِدْنـــي الـــوِرْدُ إلا عَطَشَـــا
روحُـــه روحـــي وروحـــي روحُـــه إنْ يشَـا شـئتُ وإنْ شـئتُ يشَـا[130]

ولكن حبَّه وشغفه كان من لون فريد؛ لم يكن يرى في العشق سبيل ملذة، وإنما كان يستعذب رَهَقَه وآثاره، حتى أسْلَمَه ذلك للمهالك:

أريـــــدُكَ لا أريـــــدُكَ للثّـــــوابِ ولكـــــنِّي أريـــــدُك للعقـــــابِ
وكـــلُّ مـــآربي قـــد نلـــتَ منهـــا سـوى ملـذوذ وَجْـدي بالعَـذابِ[131]

وعندما قُرِّبَ من خشبة الصلب كان يقول: «إلهي، نحن شواهدك، نلوذ بسنا عزَّتك لتُبدي ما شئت من مشيئتك. أنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله. يا مدهر الدهور ومدبِّر العصور. يا مَن ذلَّتْ له الجواهرُ، وسجدتْ له الأعراض، وانعقدتْ بأمره الأجسام، وتصوَّرتْ عنده الأحكامُ. مَن تجلَّى لما شاء، كما شاء، كيف شاء»[132].

وكانت آخر كلمة تكلَّم بها عند قتله: «حَسْبُ الواحد إفراد الواحد»[133].

وحين يتحدّث إقبال عن ولاية الحلاج وطهر رسالته، فإنه يصبح بالفعل عصيّاً على التصنيف في أيٍّ من مدارس الكلام، ويختار مكانه تماماً إلى جانب مولانا جلال الدين، الذي كان يؤمن، حتى النهاية، بمنطق إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

ويضمّ إقبال إلى منصور الحلّاج قرّة العين الطاهرة وغالب ميرزا، وهما شاعران قلقان في القارّة الهندية، وقد أخذ على غالب ميرزا أنه كان مبهماً وغامضاً وعابراً للثقافات والأديان؛ أمّا قرة العين الطاهرة، فهي شاعرة إيرانية شهيرة شايعت مؤسّس الحركة البابية (الباب)، ويُعتقد أنها كانت بالغة التأثير فيه، وصرّحت بوضوح بمذهبها في استمرار النبوّات والفيض والإشراق، ودعت إلى تحرّر المرأة، وصرّحت بمخالفتها للفقه الجعفري في مسائل المرأة والميراث بشكل مطلق، وفي النهاية اعتُقلت وحوكمت في إيران وأُعدمت (1852) بعد أن راكموها بسلسلة اتهامات فضائحية مخجلة، ولكنها من وجهة نظر إقبال لا تعكّر صفاء الثورة الأنثوية التي قادتها قرّة العين الطاهرة

---

130 عيون السود، باسل، ديوان الحلاج، ص 150.
131 من مقال لي نشر في صحيفة الثورة السورية بعنوان: الحلّاج الحرية على خشبة الصلب، 13 كانون الثاني، يناير، 2005.
132 سرور، طه عبد الباقي، الحلّاج شهيد التصوف الإسلامي، دار ناشرون، القاهرة، ص 102.
133 ابن الكربوس التوزري، عبد الملك، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، دار الكتب العليمة، بيروت، 1971، ص 414.

للخلاص من استبداد الكهنوت، وذلك بعد سنتين من إعدام الباب حسين النوري مؤسّس الحركة البابية.

والعجيب أن إقبال ذكر مراراً بالثناء حسين النوري مؤسّس البابية، وعدّ الحركة البابية حركة تنوير حقيقي في الوسط الشيعي كما كان جمال الدين الأفغاني مجدد أهل السنّة، ورائد الإصلاح فيهم.

وفي ديوانه (جاويد نامه) اختار إقبال عنواناً بالغ الجرأة في رحلته إلى فلك المشتري، فقال: أرواح الحلاج وغالب وقرة العين الطاهرة لم تجد لها مستقراً في الجنّة، فجعلت تطوف على الدوام، وإلى الأبد[134].

وفي احترامه لرسالة قرة العين الطاهرة قال إقبال:

رموز العشق في روق الشقائق وغمّ العشق في روح الخلائق
وإن تصدّع طباق الأرض تبصر نصيب العشق من دم كلّ عاشق

آه لو كان اللقاء بالعيون *** لكشفت اليوم مكنون الشجون
إن للروح شفوفاً حاطها بهواك مخيط القلب الحزين[135]

وفي الحلّاج قال إقبال:

يا لهذا العشق من حرّ غيور **** ويرى الكون بعين للجسور
ذروة للشوق شمس حاسدة صدرها فيه السماء راقدة[136]

ولا شكّ في أن هذا الاحترام العميق، الذي يكنه إقبال لقرّة العين الطاهرة ولمنصور الحلّاج، وكلاهما من الموصومين بالزندقة في التاريخ الإسلامي بسبب ميولهما في الإشراق ووحدة الشهود، يكشف عن الأفق الكبير الذي التزمه إقبال في جانبين اثنين: حرية الإنسان وإخاء الأديان.

وهذه الحقيقة التي رسمها إقبال بريشة بارعة هي التي جعلته يطوف حول المدارس والمعابد، على رغم ما فيها من تناقضات، يبحث فيها عن الحقيقة الواحدة، فاليقين ليس

---

134 حنفي، حسن، إقبال فيلسوف الذاتية، ط دار المدار الإسلامي، 2009، ص 66.
135 ديوان رسالة الشرق، نظم عبد الوهاب عزام، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 1، ص 263.
136 عزام، عبد الوهاب، نظم ديوان الأسرار والرموز لإقبال. انظر: ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 1، ص 112.

صورة الحياة الخلّاقة؛ بل الشكّ والاضطراب والتلاطم، ومهما علا صياح الواعظين، واشتدّ غضبهم من المخالفين، فإن الحقيقة مستقرة هنا وهناك، وليست السماء وحدها من تنبت الزرع؛ إنه التراب أيضاً وزند الفلاح وجودة البذار، ولن تخرج إلى العالم سنبلة جديدة إلا باقتفائها من موارد متناقضة متباعدة.

إنه، إذاً، صدى نداء يهتفه الإنسان في كلّ أرض، ويراقص خيال الباحثين عن المثل الأعلى في كلّ أمّة وكلّ دين، وحين نقرأ عن مجتمع بلا تأمل، ولا إيمان، فنحن نقرأ عن المقابر فحسب؛ فالإنسان حيوان عابد، ولن يكون غير ذلك، وقبلته السماء وميتافيزيقها، وسيظلّ عبداً للغيب ولو كان أسير عالم الشهادة.

مرتجى داود في مزموره ... أمل عاش عليه الحنفاء
وبه موسى دعا في طوره ... ربّ فاجعل كلّ شعبي أنبياء

خلع الهندي شوقاً ثوبه ... ثم ألقى الرحل في نهر بنارس
دلّه رحماك وارحم شوقه *** فلقد أضناه تنقيب المدارس [137]

ثم يذهب بالأشواق والأحداق إلى سلوك الأمم في ابتغائها وصال السماء، وتحرّرها من إسار الأرض، فيرى أنها تسير السيمرغ ذاته، وتكابد الطريق للوصول إلى الحقيقة ذاتها؛ حيث تتساقط الأوهام كلها في الوادي، ولا يبقى على سبيل اليقين إلا السيمرغ الوحيد يصل بجناحيه إلى سدرتك، ويبسطهما في رحاب حضرتك.

أنت وحدك من تملك أن ترشدهم إليك أو تصدّهم عنك، ولكنني، أيّها السيّد الجليل، أدركت بيقين أنهم يرفعون زفراتهم إليك مهما كان منبر التوق الذي يرتقون، ومهما كانت صيغة المناجاة التي يرددون، فالمقصود أنت أيّها الظاهر الباطن الأوّل الآخر، يا من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

ولقد تسمع آهات المجوس ... تصطلي عمداً على نيرانها
ترتجي من كفّك العظمى يداً ... تسكب الترياق في أجفانها

---

[137] الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش، وهي في سياق ما دوّنه إقبال في معراجه في أرمغان حجاز. انظر: ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 2، ص 412.

هـل سـوى الشـوق إلـى وجـه الحبيـب أمــل فيــه النصــارى يخلصــون
أتـــرى مـــدمعهم حـــول الصـــليب *** هل لغير الحبّ قاموا يركعون [138]

وتتفق هذه النظرة مع سياق الإمام الكبير الذي اتخذه إقبال معلماً خالداً وهو جلال الدين الرومي، الذي كان أبرز من كرّس إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وعدّ السلوك إلى الله موقفاً عابراً للأديان والمذاهب والطوائف.

وفي قصيدة فريدة ترجمها ونظمها عبد الوهاب عزام، وهي تبدو دون قصائد إقبال صورةً وشاعريةً، ولكنها تتصل مباشرة بالمقصود، وقد آثرنا تركها كما هي، وقد سمّاها: «العالم معبد الله»، يقول إقبال:

إنّمـــا العـــالم طـــرّاً معبـــد كـــلّ مـــن أحســـن فيـــه يعبـــد
كـــلّ مـــن أدلـــى بقـــول طيـــب ينبـــت الخيـــر كغيـــث صـــيب

كـــلّ مـــن أحســـن يومـــاً عمـــلاً كـــل مـــن أحيـــا مواتـــاً همـــلاً
كـــلّ مـــن فـــي أرضـــه قـــد زرعـــا **** ليقيـــت النـــاس والعجـــم معـــاً

كـــلّ مـــن يغـــرس مخضـــر الشـــجر فيـــه للإنســـان ظـــلّ وثمـــر
كـــلّ مـــن يحفـــر بئـــراً فـــي الســـبيل تنفـــع الظمـــآن مـــن حـــرّ الغليـــل

كـــلّ مـــن يبنـــي بنـــاء حســـنا كـــلّ مـــن فـــي صـــنعه قـــد اتقنـــا
كـــلّ مـــن أحـــدث علمـــاً للبشـــر ينفـــع النـــاس ولـــم يقصـــد لشـــر

كـــلّ مـــن فـــي دهـــره قـــد أجمـــلا فكـــرة أو قولـــة أو عمـــلاً
كلّهـــم لله نعـــم العابـــد كلّهـــم للخيـــر نعـــم القاصـــد[139]

[138] المصدر نفسه.

العالم كلّه معبد الله، والخلق عياله، وكل خير تبذله في الأرض هو صلاة، والعالم بستان الله، والناس في حال صلاة طالما كانوا يخدمون الآخرين ويبذلون المعروف.

وربّما كان أكبر ظهير لهذه الموقف الفكري هو القول بوحدة الشهود التي اشتهر بها الإمام أحمد الفاروقي السرهندي، وعلى الرغم من رفضه سياسات أكبر في إطلاق دينه الجديد، القائم على خلط الأديان جميعاً، لكنه ظلّ وفيّاً لمبدأ حقّ الخلق في عبادة الخالق وشهود ذاته ونوره وتجلياته في كلّ جميل.

لقد نجح إقبال في الرحلة من وهم وحدة الوجود إلى ضياء وحدة الشهود، حيث ما عبد العابدون إلا الله، وهو الظاهر والباطن والأوّل والآخر، وفي هذا السياق ينقل إقبال بإعجاب كلام أبي يزيد البسطامي حين سأله سائل: أكان الله ولا شيء معه؟ فقال على الفور ولا يزال على ما عليه كان!![140].

حقّق لا ترى إلا الله، هو الحقّ الذي لا إله غيره، وهي الحقيقة التي جعلت ابن سبعين يتخيّر في ضراعته اليومية صيغة عجيبة صادمة: ليس إلّا الله!

---

[139] عزام، عبد الوهاب، نظم ديوان إقبال بيام مشرق، وهي في ديوان إقبال للغوري، ج 1، ص 362.

[140] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 78.

في عدالة الدار الآخرة

الآخرة عالم جميل، هكذا ينطلق إقبال في إيمانه بالآخرة، وكلّ عدالة أخفقت في الأرض فإن موعدها السماء، وكل الآمال العظيمة والأحلام الجميلة التي فشلت الأرض في تحقيقها فإن موعدها السماء، وحيثما ضاقت صدور الأنبياء والفلاسفة والصديقيين بالمظالم في هذا العالم فإن الموعد الله.

وإقبال لا يجهل أن هذه الأماني الطيبة لا يساعد عليها ظاهرالنصّ الديني، وستصطدم أوّل أمنية من هذه الأماني بالوعيد الصارم الذي يستغرق نصف القرآن، {إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً}(سورة المزمل13) {يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد}! (سورة ق 30). فما عسى الفيلسوف أن يقدم في سياق الجمع بين هذه الآمال البيضاء وهذه الحقائق الصارمة!

ذهب إقبال إلى الإجابة عن التساؤلات البريئة التي تراود خيال المؤمن البسيط حين يواجه سؤال عدالة الله، فما معنى العذاب الأبدي حين تكون الدنيا قد تودّع منها، وحين يدخل الناس عالم العدل المطلق، لا يمكن تفسير العدل الإلهي في سياق الإيمان بالعذاب الأبدي للعصاة أو المشركين، وفي موقف جدّ شجاع يصرّح إقبال أن الجنّة والنار حالتان لا مكانان، وأن هدف الجحيم فحسب تأهيل العصاة وإعدادهم ليدخلوا في الله، ثم يمضي في سؤال استنكاري: يقولون إن الغاية النار، أو الغاية الجنة... إنّها أوهام .. النهاية هي الله، كأنّنا لم نقرأ قول الله: {وأن إلى ربك المنتهى }[141]....؟

---

[141] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 145.

أنـــــا روح الله أســـــعى نحـــــوه رغبـــــاً أو رهبـــــاً أو ولهـــــاً
مـــــا لنـــــار أو نعـــــيم أنتهـــــي *** بـــل إلـــى ربـــك فيـــه المنتهـــى[142]

إن الإسلام أعلن نهاية الكون بطريقة صادمة للفلسفة {وأن إلى ربّك المنتهى}؛ إنها إعلان النهاية في اللانهائي، وهو نقيض ما دأبت الفلسفة اليونانية القديمة على تكريسه حين قرّرت النهاية في التناسب...[143].

فلسفياً لا يمكن تصور نهاية الانسان بفناء بدنه، الإنسان حالة خلد تمتدّ من عالم ألست بربكم إلى عالم ادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

أمّا البعث، فهو عند إقبال حدة في البصر وقوة في المعرفة، وحين وصف القرآن الكريم الحجيم بأنها التي تطلع على الأفئدة، فإنه أخبر أنها حالة اكتمال بالمعرفة، وحالة ألم لإخفاق الانسان. أمّا الجنة، فهي حالة حبور بالنصر على السقوط.

ليس في الاسلام لعنة أبدية، والأبد هو حقب من الزمان، ولا يمكن في جوار المطلق الحقّ أن تفهم الأشياء إلا بوهنها وتهالكها أمام كماله؟

والنار ليست هاوية حفرها إله منتقم ليتشفّى من عباده؛ بل هي تقويم وتطهير وتأهيل للحياة الحرّة، والجنة ليست عطلة أو إجازة؛ بل هي استمرار في عالم النعيم الروحي144.

النهاية ليست في حركة الأفلاك، وإنما في العالم الروحاني، وفي الذات الإلهية... القيامة ليست آخر العالم، إنها بداية السلوك في عالم السرمد.

إنه التعبير الذي عبّر عنه صوفيّونا العارفون: وارزقنا البقاء بك بعد الفناء بك على قدم ساداتنا السالكين فيها...

---

[142] الأبيات من نظم محمد حبش، وهي في سياق ما قاله إقبال في تجديد التفكير الديني، ص 146 وما بعدها.
[143] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 125.
[144] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 125.

لا تطيق تلك الروح الحرّة، التي تمرّدت على الأصنام كلها، أن تغدو أسيرة لصنم جديد يتحلّى في زخارف الجنة من حور ونور، أو أن يعيش رعاباً جديداً من حميم وزقوم، لقد بات يردّد كلمات علي بن أبي طالب: إن قوماً عبدوك رجاء جنتك فتلك عبادة التجّار، وإن قوماً عبدوك خوف نارك فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوك لأنك أنت الله ... هؤلاء وحدهم من عرفوك...[145].

أنـــا مـــا أرجـــوك ظـــلاً زائـــلاً أنـــا أرجـــوك رحيقـــاً مـــن جـــلال
لـــيس فـــي البـــرزخ مـــا يدهشـــني *** دهشـتي حـين احتفـالي بالوصـال[146]

لا يتردّد إقبال في رسم ملامح الفردوس الذي يبتغيه، ولم يتردّد وهو لا يجهل أنه روح الله وسرّه، عجنه بيديه وأسجد له ملائكته، وسخّر الوجود بين يديه؛ إنه يتقدّم مباشرةً من الله تعالى ببيان ما يمتلكه من مجد وشرف، يتيه به على الدنيا، ويفخر به أمام الله:

إنـه يتحدث عن الجنّـة والنـار والنعيم والبـرزخ والصـراط والأهوال علـى أنهـا محض ومضـات سـريعة عـابرة فـي ذلـك العـالم الأسـمى، ويـرى أن هـذه كلّهـا مواعيـد عـابرة، والموعد الحقّ هو الله... ألم تصغِ إلى قوله: وأنّ إلى ربّك المنتهى؟

ألـــف حاشـــا أن يكـــون المنتهـــى فـــي جحـــيم وســـجون وســـعير
نـــاره التطهيـــر فـــي معراجـــه *** ثـمّ مـن بعـد إلـى الله المصـير [147]

وحـين يـزاحم الواعظـون عليـه يخوفونـه أهـوال الآخـرة، وسـقرها وحميمهـا وغسـاقها وزقومها، ويلقنونه الكلمات المحصّنة من عذابه، موصولة بالخضوع والضراعة رجاء النجاة ورغبة السلامة، يرفع صوته بالجهر قائلاً:

---

[145] الششتري، نور الله، إحقاق الحق وإزهاق الباطل، دار النعمان، بغداد، ص 292. وقد نسبت هذه الكلمات لرابعة العدوية في مصادر كثيرة.

[146] هذه الأبيات وما بعدها هي مضمون كلام إقبال في تجديد التفكير الديني ص 125 وما بعدها، وهي من نظم محمد حبش.

[147] الأبيات لمحمد حبش، وهي في سياق ما كتبه إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 211.

يـــا مـــلاذي مـــن ظنـــوني كلّمـــا خوفـوني الـبطش فـي يـوم الوعيـد
ســـوف آتـــي حاســـراً مستبشـــراً *** وجهك المـأمول لا وجـه العبيـد [148]

لا يتـوافر لـدينا موقـف متكامـل مـن لوحـة الآخـرة كمـا يرسـمها إقبـال، فهـو يتحـدث عـن ومضـات مـن العدالـة فـي تلـك الـدار الآخـرة، ولا يتعسّـف فـي تأويـل النصـوص، أو لـيّ أعناقها، ويهرب من ذلك كلّه إلـى الاعتصـام بتأويـل واحـد يعتقـد أن فيـه جوابـاً عـن كلّ سؤال يخص الخواتيم؛ إنّها النهاية فـي وجـه الله، وهـو مـا يكـرّره بعنايـة وثقـة ويقين: [يـا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي] [الفجر 30].

القدر

كتب إقبال نصوصاً كثيرة تعكس رأياً مختلفاً تماماً في القدر، وبالتأكيد لم يكن ليقبل أبداً الفهم السائد للقدر بأنه ذلك الكتاب الحتم الذي ألغى إرادة الإنسان وأحاله إلـى محـض آلـة بكمـاء تقـع عليـه فيهـا نـوازل القـدر، ويـرشّ فيهـا علـى المـوت السكّر، ويرضـى ببـؤس الأقدار مستسلماً بالعبودية والخضوع....

وفـي مواجهـة مباشـرة مـع الفهـم التقليـدي للقـدر بأنـه الخضـوع لإرادة الـدهر كتـب إقبـال عبارات ثوريـة مباشـرة، فقـال: إنـه مـن المخجـل أن يكـون القـدر جـزءاً مـن العقيـدة!! إنـه شيء اخترعه الأمويون لتأمين خضوع الناس لإرادتهم![149].

لا شكّ في أنّ تعبيرات إقبال في مسألة القدر لا تتسق علـى الإطـلاق مـع الفهـم الأشـعري التقليدي في الاعتقاد، ومن الواضح أنها تبدو ردّة صـارخة، أو انقلابـاً معتزليـاً علـى أقلّ

[148] الأبيات لمحمد حبش، وهي في سياق ما كتبه إقبال حول الجنة والنار في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 145.
[149] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 132.

تقدير، تذكّرك بالمفكرين العقلانيين الذين يرون أن الأقدار تكتب بعد وقوعها، مستدلّين بالنصوص القرآنية: [ونكتب ما قدموا وآثارهم] [سورة يس 12]، [ستكتب شهادتهم ويسألون] [سورة الزخرف 19]، [كلّا سنكتب ما يقول وياتينا فرداً] [سورة مريم 79]، [سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق] [سورة آل عمران 181].

وقد قارب إقبال في شعره موقف الفلسفة السينائية والفارابية التي التزمت دليل وجود الخالق، لكنها أنكرت دليل العناية، وعدّت الإنسان في هذا العالم سيّد قدره، وأن الله خلق الكون وأحكم سننه، وشاء أن تتولى هذه السنن إدارة العالم، دون أن يكون فيها مكان للخوارق أو الامتيازات.

ولكن إقبال لم يكن يخوض حواراته على نسق جدل اللاهوت العقيم هذا، لقد كان يعالج مسألة القدر في نضال الإنسان وقيامه، وتحدّيه للطبيعة من حوله، وصناعة أقداره بيده، وهو أفق آخر في الجدل لا يشبه في شيء جدل اللاهوت العقيم.

ويمكن القول إن إقبال تجاوز ابن سينا بأشواط كثيرة؛ حيث انتهى من جدل الخلق والعناية، وانطلق مباشرة إلى فقه الشراكة والتكامل، حيث لا يكون الإنسان شيئاً من أشياء الله؛ بل سرّاً من أسراره، وقدراً من أقداره، وسيّداً في مملكته، وفي (بيام مشرق) كتب قصيدته الجريئة:

أنت خلقت الليل وأنا صنعت المصباح

أنت خلقت الطين وأنا صنعت الأقداح

أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء

وأنا صنعت الرواق والبستان والكرم

أنت خلقت الحجر وأنا صنعت منه المرآة

أنت خلقت السمّ وأنا استخرجت منه الترياق[150]

[150] عزّام، عبد الوهاب، ديوان الرموز والأسرار لإقبال، وتجده في الغوري، عبد الماجد ، ديوان محمد إقبال، ج1، ص 69.

لم أعد أنتظر أن تقد لي السماء أقداري على نسق مرادها وقرارها، وفق مواعيد الخلق المرتّبة من الذرّة إلى المجرة، لقد أصبحت سيّد قدري، وأنا من ينتقي من لوحة الخلق ما أحقّق به ذاتي، ويجعلني أهلاً لتسجد لي الملائكة، وتسخير الأكوان.

لقد أعاد كتابة الإنسان بلغة لا وجود لها في تراثنا الفقهي، وبدلاً من لغة الفقهاء التي كانوا يصدرون بها كتبهم بصيغة العبد الفقير، والضعيف والعاجز، نادى إقبال مثاله بوصف مختلف: الإنسان الحر، الجسور، المتمرّد، القلندر، الإنسان المتجرّد، وهو شائع في كتاباته وشعره، وحين يريد أن يشير إلى النزعة العرفانية فيه كان يسميه بالدرويش، ولكنّه يصرّ أيضاً على أنه درويش لا يأبه لصارم ومهند، ولا يرهبه زحف ولا جيش.

وحين وصف المؤمن في عصا الكليم قال:

ناعم كالحرير مع الأصدقاء

صلب كالحديد في معركة الحقّ والباطل. ذلك هو المؤمن

ينازع السماء كأنه ندّ لها

يترفّع على الأرض وهو ابن الأرض. ذلك هو المؤمن

لا تجذبه الحبارى والظباء والحمام

بل يختار صيده من نوع جبرائيل وإسرافيل. ذلك هو المؤمن.[151]

المؤمنـــــون علـــــى عنايـــــة ربهـــــم يتوكلـــــون
لا خـــــوف يـــــرهبهم ولا هـــــم فـــــي المنايـــــا يحزنـــــون

*

لـــــو مـــــرّ أضـــــعفهم علـــــى فرعـــــون يجتـــــرّ الرؤوســـــا
لأراك فـــــي الإفصـــــاح هارونـــــاً وفـــــي الإيمـــــان موســـــى [152]

[151] عزام، عبد الوهاب، الرموز والأسرار، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ، ج1، ص 70.

[152] البيتان لم أجدهما في دواوين إقبال، ولكن رأيتهما منسوبين إليه في كتاب وقفات مع الأبرار ورقائق المنثور والأشعار، لمحمد لطفي الصباغ، الدار العربية للعلوم، 1992، ص 302.

وليس لدى إقبال حدّ في التغزّل بالمسلم؛ فالإنسان عند إقبال طموح بلا أفق، وهو سرّ الله ومعناه وروحه وفطرته وانبثاقه، وفي (جاويد نامة) يقول:

يبدو المؤمن كلّ يوم في لبوس جديد

يتجلّى الله فيه بخفضه ورفعه وقبضه وبسطه

إنه جار جبريل كما هو إنسان الأرض

ما من أحد يعرف سرّ هذا المؤمن

إنه يبدو يقرأ القرآن ولكنه القرآن نفسه

إنه الميزان في هذا العالم

إنه القسطاس يوم الحساب

إنه الندى الذي ينعش شقائق النعمان

إنه الشمس التي ترعش قلب الأزهار

إنه لحن الله الخالد.[153]

ولا مبالغة فيما نرويه عن تغزّل إقبال بالمؤمن، وهو لا يقصد هنا أكثر من الإنسان الرسالي الذي يؤمن بالقيم العليا، وقد ذهب في التغزّل به إلى الحدّ الذي قدمه الفلاسفة المدرسيون حول المسيح الكوني الذي تتجسّد فيه صفات الكمال كلّها، أو الرحمة للعالمين التي شرحها فقهاء الإسلام. وهكذا، فإن إقبال التقط كل مجد وصف به الأنبياء ليجعله مركباً متاحاً لكل ذي بصيرة وعزيمة، وبات مستعداً أن يدعو بدعاء عزير: ربّ فاجعل كل شعبي أنبياء!

والاستسلام للقدر عند إقبال ليس مرضاً تختصّ به مدارس اللاهوت؛ إنه أيضاً خيار فلاسفة كبار عبّروا عن إحباطهم وعجزهم من تغيير العالم، لقد ارتكب أوغست كونت (Auguste Comte) وهيغل (Georg Friedrich Hegel) رأياً كريهاً حين كرّسوا

---

[153] الغوري، عبد الماجد، ديوان محمد إقبال، ج1، ص 71.

العقل الجبري، ومارسوا الازدراء بإرادة الإنسان وحريّته؛ إن العقل الجبري له مؤيدون كثير في الفلسفة الغربية، وفق ما شرحه شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) لو ألقيت حجراً في الفضاء وكان له عقل لظنّ أنه يتحرّك بإرادته!

إن تحدي القدر كان سمة حاضرة في شعر إقبال، ولكنه كان تحدياً للطبيعة وليس تحدّياً لله، كان يفهمه على أنه مباراة طاحنة بين الطبيعة والإنسان يحكم فيه الله ربّ العالمين، وكان ملعب الصراع هو هذا العالم الذي نزل إليه ابن آدم يتحدّى أقداره البائسة التي رسمتها التوراة حين أرسلته مطموساً بالخطيئة والعار، ولكنّه يركل هذا الفهم الكئيب، ويرسم قدره بيده وكفاحه في الأرض متحدياً كلّ قدر يتدثّر بدثار اللاهوت.

أيّها المسلم يا نور السماء — كيف لا تشرق في أرض البشر
أنت سلطان الليالي لا كما — قالت الحمقى أسير للقدر

إن أصنامي التي في معبدي — مثلها تلك التي في معبدك
لم تحطمها يد غير يدي ** فترفع عن يد ليست يدك[154]

وتقدّم إقبال خطوة أخرى في مواجهته مع القدر؛ حيث أعلن أن فكرة المهدي المنتظر برمّتها لون من انهيار الإرادة والاستسلام للوهم، وأعاد تموضع هذه الفكرة في إطار المشاريع السياسية الاجتماعية الهادفة إلى ترويض العقول وقتل إرادتها بالانتظار، وعبّر عن إعجابه بشجاعة ابن خلدون، الذي خاض غمار هذه الفكرة بشجاعة وصلابة، وقال: لقد نجح ابن خلدون في القضاء قضاءً مبرماً على فكرة المخلّص المنتظر بوصفه وعياً جبرياً قدرياً لا يليق بكرامة الإنسان وإبداعه المستمرّ وخلقه المستقبل[155].

ومع أنه لم يكن يجهل ركام الروايات الهائل الذي يتحدّث عن المهدي القادم والبشارات التي تحيط بمخرجه وانتصاراته، وبدلاً من تضييع الوقت بمناقشة الروايات جزم بحزم رافضاً الفكرة من جهة المبدأ، واعتبرها كيداً سياسياً يهدف إلى مقاومة الإرادة، وقال: لعمري إن فكرة المخلّص المنتظر لهي من بقايا الثقافة المجوسية في الإسلام...[156].

---

[154] المصري، نجيب، ديوان أرمغان حجاز لإقبال، وتجدها في الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، ج2، ص 419.
[155] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 175.
[156] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 175.

ليس الحرج من محدودية قدراتك، ولكن العجز هو محدود همّتك، لم لا تنفجر الأرض من تحتك بركاناً، أنت هو سيّد القدر، فلا تنتظر من السماء أن تحبوك مجدك وأنت نائم، فالعالم لا ينتظر الكسالى، والشاهين لا يتوقّف على تخوم الأرض.

إلام تعـــيش فـــي إرث الإهـــاب إلام تكـــون نمـــلاً فـــي تـــراب
فطـــر كالصـــقر معتزمـــاً وحلّـــق **** إلام تســـير خبـــاً فـــي اليبـــاب[157]

وكان أروع ما كتبه إقبال في القيام وتحدي القدر هو ذلك الحوار الشهير الذي عقده بين آدم وإبليس.

وبخلاف ما نتوارثه من روايات الحكاية في الأخبار العتيقة، وربط ما رمز إليه القرآن بما فصلته التوراة وعلماء بني إسرائيل، فإن إقبال يبتعد عن ذلك كلّه، ولا يتوقّف عند المروي في هذا السياق دلالةً، ولا اعتباراً.

أليس من المؤسف أن روايات خلق آدم كرّست عدداً من المعاني المرذولة التي لا تقبلها الفطرة السليمة؛ حيث المرأة مصدر الخطيئة ومنبع الإثم، وحيث الإنسان أسير خطيئته وعقدة ذنبه، وهي كارثة فظيعة ذهبت النصرانية إلى معالجتها بفداء الربّ بصلب ابنه الوحيد من أجل إنقاذ ابن آدم من الخطيئة، وكرّست آدم عاصياً وغاوياً وأثيماً حتى قام كثير من الفقهاء بشطب اسمه من ديوان الأنبياء!

ومع أنّه، بكلّ تأكيد، قرأ الروايات المترافدة في وصف ما جرى في السماء، ولكن هذه الروايات لا تحمل أكثر من تصوّرات أصحابها. أمّا إقبال، فيريد لهذه الحكاية أن تصوّر كفاح الإنسان ورسالته وغايته في هذه الحياة.

إنه لا يرى في الرغد الخيالي، الذي تتنعم فيه قبائل الجنّة شيئاً ذا بال؛ إنه بعض ما يبذله الله لعياله، ولكنهم لا يخرجون عن نسك العبد المخلوق الضارع بالليل والنهار أن لا تزول عنه تلك النعم فيجوع، ولا ترفع عنه تلك الهبات فيعرّى؛ فهو دائم الفقر والخوف

[157] عزام، عبد الوهاب، ترجمة ونظم ديوان بيام مشرق (رسالة الشرق) لإقبال، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج1، ص 268.

والضراعة عاجز عن الخلق والإبداع والتكوين، كَلٌّ على مولاه عاجز في أقداره أينما يوجهه يعود عبداً ضعيفاً...

تبدو القصة عند إقبال من أفق آخر محتلف تماماً، تبدو صراعاً بين القيام والمنام، بين الهمود والنهوض، بين الأمة الراتعة في مجد الآباء، وبين الأمة التي تبني بكدّها ويدها، بين الأمة المغرورة بما لديها من وحي ونبوءة، وبين الأمة القائمة بالسعي لبناء الحياة، وبالتحديد بين المجتمعات الخاملة التي استسلمت للأقدار، بين فقهاء الصوفية الذين كتبوا فصولاً في فضل الخمول وفضيلة التوكّل، وبين المسلم الحق الذي هو القدر نفسه، يصنعه بيمينه، ويختار له اتجاهه؛ حيث يبدو عند إقبال أن الإنسان وحده سيّد القدر، وأن الكون كلّه في خدمة الثائر الصارم ابن آدم.

لقد اختارني خليفته لأنني زللت وعثرت، ولا قيام بلا عثار، ولا نجاح دون فشل، أرادني حرّاً مسؤولاً، ولو بقيت على نسق الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لبقيت فرداً في طابور المحفل أتقلّب في نعيمه وأرغد في خيراته، ولم يكن لي أن أنال شرف خلافته على الأرض، أشارك في خلق جديد، وأسهم مباشرةً في بناء العالم.

لقد كان يرسم لوحته بين الكسل والعمل، والإحباط والرجاء، بين إبليس الذي اعتاد رغد الجنة ونعيمها، فلمّا حرمها تحوّل إلى الفساد والضياع، وبين آدم الذي أهبطه الله من الجنّة فاستأنف في الأرض كفاحاً نبيلاً.

وفي فصل خاصٍّ في جناح جبريل يعقد إقبال مشهداً عميقاً لوداع آدم في الجنة، كتبه تحت عنوان: آدم يغادر جنة عدن والملائكة تودعه:

أنـــــت موهـــــوب وإلا لـــــم نجـــــد للســـــرّ حـــــلاّ
كنـــــت مـــــن طـــــين ويبـــــدو أن ذاك الطـــــين ولّـــــى

لـــــــك فـــــــي الحلـــــــم نعـــــــيم يغمـــــــــر اليقظـــــــة ظـــــــلّا
دمعـــــــك الصـــــــبح لـــــــدينا يغمـــــــــر الجنـــــــة طـــــــلّاً[158]

وإلى جانب المشهد السماوي المهيب لوداع آدم يعود إقبال لرسم ملامح حوار فريد بين آدم وإبليس لمناقشة تطورات الموقف بعد خروج آدم من الجنة، ويطرح إبليس أسئلة متتابعة. ألا تشعر أنك تعرضت لخدعة سماوية؟؟؟ لقد وعدك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ولا تظمأ ولا تضحى... ولكنني أراك اليوم تحمل قدرك البائس على الأرض، وتشمر زندك الأسمر تحصد بالمنجل وتحرث بالمسحاة، وتذوق الجوع والحرّ والقرّ والمرض والعناء، يا لها من صفقة خائبة، وعدك النعيم وقدرك العناء.

التقـــــــى آدم إبلـــــــيس فـــــــازكى فيـــــــه وجـــــــده
قـــــال يـــــا آدم ترضـــــى لعنـــــة مـــــن بعـــــد ســـــجدة؟

كيـــــف أصـــــبحت فـــــإني أســـــأل الخـــــدام عنـــــك!
لســـــت أعنـــــي مـــــن ســـــؤالي أننـــــي أســـــخر منـــــك!

كيـــــف ســـــواك زعيمـــــاً ثـــــمّ اصـــــلاك نكـــــالاً؟
إن وضـــــعاً مثـــــل هـــــذا الوضـــــع يســـــتدعي الســـــؤالا [159]

إنها القراءة البليدة لخائب لا يدرك معنى الكفاح، مركون في زاوية معتمة من الإفلاس، لا يدرك حركة التاريخ الهادرة وتوثّبه المستمر، ويفهم العالم فحسب على قدر خيباته وفشله، ولا يدرك روعة الكفاح في بناء الحياة، ولا الجدل المتلاطم الذي يعصف بهذا الوجود صعوداً كل يوم، حيث لا مكان للذوات القارَّة.

إن الحركة جوهر الحياة، وحين تختار أن يكون مكانك في هذا العالم على شرفة المتفرجين الذين يصنع لهم أقدارهم الآخرون، فإنك لن تفهمني أيّها الأبله، أنا في فؤادي جذوتي وتوقدي، فمن أنت؟

---

[158] الأبيات في قصة آدم وإبليس هي قصيدة واحدة لإقبال تجدها في ديوانه جناح جبريل، ترجمة عبد المعين الملوحي، نظم زهير ظاظا، وهي موجودة بطولها في الأعمال الكاملة لإقبال كما جمعها الغوري، دار ابن كثير، 2007، ج 2، ص 521 .

[159] الأبيات هذه وما تلاها غير موجوة في جناح جبريل، ولكن أخبرني الشاعر زهير ظاظا أنه أكملها وفق تحليل المفتي السوري الشيخ أحمد كفتارو لرواية إقبال.

لم يشأ آدم أن يمضي في حوار إبليس إلى حيث يريد، فكاشفه مباشرةً بالقول:

قـــال يـــا إبلـــيس نحـــن اثنـــان فـــي الجنّـــة كنّـــا
أنـــــت بُـــــدّلتَ يقينـــــاً وأنـــــا بُـــــدلت ظنـــــاً

يوشك إقبال أن يستنطق آدم ليقول: أنا يا إبليس لست صدفة تائهة في هذا العالم؛ أنا لست كما تقول المادية البلهاء محض تركيب هيدروكربوني صدفي عاثر قذفت به رحى الديالكتيك السائبة أدركته ظروف مناخية صدفية فانبعث يمشي على قدمين... أنا لست كذلك أيها الأبله... أنا آدم ... خليفته في أرضه، ووعده في جنّته، خلقني بيمينه وأسجد لي ملائكته، وقرّرني سيّد العالم، فمن أنت؟

أنا سيّد الكوكب، وقد سخّر الله لي ما في السماوات والأرض جميعاً منه، وسأبدأ مشوار علم وبحث وتجربة يمتدّ لعشرات القرون لتسخير كلّ ما في هذا العالم، فهو مملكتي التي حبانيها الله، فماذا تملك أنت؟

ها أنا وحواء ننزل إلى العالم الجديد ومعنا بيعة بالخلافة من المحفل السماوي، لن ننتهي في أنانيتنا وانفرادنا، سننشطر ونتجزّأ وننشأ خلقاً جديداً صاعداً كلّ جيل، فيما تأكل أنت بؤسك، وتصطلي بغيظك، فلقد أنهيت بيديك فرصة الفناء الذي تنشأ به الحياة الجديدة، واخترت العيش الآسن الكئيب، ستعيش في تربّصك كعجوز بائس تجاوزه قطار الموت، ولم يعد يستطيع مركب الحياة، فيما نحن ننشد الحياة والأمل كل يوم، نحن أيها البائس روح هذا العالم وديالكتيكه الصاعد، ولن ننتهي إلا عندما يأذن الله بقيام عالم جديد.

سوف يكون في ذرّيتي أنبياء وحكماء وفلاسفة، وسيقومون بزراعة الأرض وركوب الفضاء وعبور البحر وبناء المدن، وستقوم حضارات تلو حضارات بزند أبنائي وعلمهم وحكمتهم، أنا ممتدّ أيّها التائه في أولادي أمماً وشعوباً وقبائل، وكلّهم يضيفون إلى هذا الكوكب مزيداً من الألق والنور، فيما تنحشر أنت في عالمك البائس وغاية مطالبك أن تنتظر إلى يوم الدين، وحين يبعثون ما الذي ستحمله من إنجازاتك في هذه الحياة؟ ويحك... أمّا إنجاز ولد آدم فسيدهش الملأ الأعلى، فما هو إنجازك أنت غير طول البؤس والانتظار.

لقد كان مهرجان السماء الأول باهراً وفريداً، يوم تم تتويجي سيّداً على الكوكب الجديد، لقد خرّت الملائكة ساجدين تأكيداً لمكاني ورسالتي، وهذه الذاريات ذروا والحاملات وقرا والجاريات يسرا والمرسلات عرفا كلّهم جند من جندي سجدوا لي في مهرجان الله، وسخرهم لخدمتي ... ويعلم ما لا تعملون.

إن سـري حـين نـادى مهرجانـه
أمـر الكـلّ فخـروا فحبـاني صـولجانه

وفي نظرة صارمة يلتفت آدم إلى إبليس ويسأله عن رسالة الإنسان ورسالة الملائكة، ولا يتردّد أبداً في تفضيل رسالة الإنسان على رسالة الملاك، يسأله عن جدوى عالم الرغد والنعيم الذي يرتع فيها الملائكة في قصور السماء، يأكلون من حصاد الآخرين كما شاء لهم القدر، فيما يكون الإنسان هو القدر الذي يحكم التاريخ:

مـا الـذي يفعلـه العبـاد فـي قصـر السـماء
بـين ريحـان وبخـور وسجـاد ومـاء

هـم مـن الخلـد سـكارى وأنـا أحفـر لحـدي
أحمـل الـدنيا شـريداً أعصـر الصـخر لوحـدي

وليس عسيراً أن نستنطق نظرة إقبال لرسالة آدم في الأرض كما شرحها في مظان كثيرة في دواوينه: إنّني هنا في عالمي الذي أبنيه بعَرقي وكفاحي، لقد صنعت قدري على هذه الأرض، لم تأتِ بي إلى هذا المكان حيّة ماكرة، ولم أسقط بغواية امرأة، ولم تنبذني من جنّة عدن خطيئة أعيش إثمها وشؤمها؛ إنها أوهامكم وجهالاتكم، وهي ظنون جاهلة بلا إسناد ولو سطرتموها في العهد القديم والجديد، أنا هنا لأنني أحمل مشروع حياة وإرادة بناء، أنا هنا لأنني أريد أن أخلق عالمي بيدي، ولا أريد ان يصنعه لي خدّام السماء.

لا ألعن الأرض، ولا أتولى مثلك ألعن حظي العاثر، أنا أصنع حظي وكدّي، أنا اخترت الأرض داري وقراري، أليس رائعاً أن تعيش في عالم أنت خلقته؟ ولم يخلقه لك الآخرون.

ذات يوم سيكون على هذه الأرض مليارات من البشر كلّهم قدمتهم للحياة من صلبي، وزرعت لهم من زندي، سيكونون فحسب أبناء آدم الإنسان، وليسوا وصائف الجنة. هل كان يمكنني ان أحلم بمجد كهذا في جنة عدن بين الحور والنور، والخضرة والجداول؛ حيث قدر الخلود مرسوم ومحتوم، وليس فيه مجد الفشل والنجاح، ولا روعة السقوط والقيام؟

إنها ليست حصيلة قدر عاثر كما يخدعك وهمك البائس؛ إنها، أيّها التائه، رحلة ارتقاء من البهيمية إلى الروحانية، ومن قدر السقوط إلى قدر القيام.

أيها التعيس ... إنني أقول للموت كلّ يوم: أهلك جيلاً كاملاً وأنا أخلق جيلاً جديداً.

وفي قراءة شامخة من عزيمة ويقين يلتفت آدم إلى محاوره، ويشير بسبابة إصبعه إليه في تحدٍّ كبير... هنا في الأرض تكمن رسالتي، أنا لست محض رجل تضحك له الأقدار... أنا هو القدر، وأنا سيّد هذا العالم، ورسالتي في خلافة الأرض هي التي أحمل وأفتخر:

أنـــــا لمّـــا أعبـــد الله بحرمـــــاني وجـــوعي
لـــن تـــرى فـــي المـــلأ الأعلـــى كمثلـــي فـــي خضـــوعي

قـــل لمـــن يســـــأل عنـــي أنـــا شـــيخ الحضـــرتين
إن عبـــداً لوعتـــــــه الأرض عبـــد مـــرتين**[160]

[160] سبقت الإشارة أن الأبيات المتصلة بحوار إبليس وآدم من نظم زهير ظاظا، لكنها غير موجودة في جناح جبريل، وقد أخبرني الشاعر أنه نظمها استكمالاً لرواية إقبال.

نهاية النبوة لا نهاية الإشراق

ولكنّ حماسة إقبال لإنهاء النبوة، وفرحه بموقف الرسول الكريم حين أعلن: لا نبي بعدي، لا يعنيان أبداً نهاية الإشراق، وتوقف الفيض الإلهي... لقد كان إقبال حريصاً كأيّ شاعر على تأمين موارد الإلهام، وقد صرح بذلك:

«فكرة انتهاء النبوة لا تعني أن العقل سيحل محل الشعور بشكل نهائي؛ إنه أمر غير ممكن، ولكن فكرة انتهاء النبوة تنزع العصمة عن أي فكرة تتدثر بالغيب وتخضعها للخبرة والتجربة. إن التصوف هو التجلي الأخير لاستئناف مدرسة الشعور بجوار مدرسة العقل بعد انتهاء النبوة»[161].

إنها، إذاً، ليست نهاية ما بين السماء والأرض من موارد العطاء والتبادل الإشراقي، لقد أغلق الرسول باب النبوة، ولكنه فتح باب الولاية، وهي حقيقة يتفق عليها أهل العرفان الإسلامي، فأولياء هذه الأمة ليسوا أقل شأناً من أنبياء بني إسرائيل. ممنوع أن يغلق باب العرفان، فالإنسان بحاجة كلّ يوم إلى عبير قادم من السماء الأكثر طهورية ونقاء. إننا في حضرة غاره العظيم، ليس لنروي أخبار إشراقه، بل لندخل إلى الغار إياه ونلتمس الإشراق الذي غمر حياته ونور فؤاده:

أيهـــا الصـــادق أشـــواقك فـــي غـــارك العـــالي شـــفاء للقلـــوب
كنـــت تلقيهـــا علـــى جـــنح الـــدجى وتلقاهـــا علـــى جـــنح الغيـــوب

قـد وهـى صـبري أمـا مـن نفحـة غيـر مـا قـد كـان فـي غـار حـراء
كيـف ترجـو العـيش يومـاً زهـرة *** حجبت عن ري أمطار السماء[162]

لم يكن ليكف عن مناجاته ومعراجاته، والصخب الذي تمتلئ به السماء ينتظر القلوب الظامئة في الأرض، وفيما اختار ابن سبعين أن يسكن في غار حراء كان إقبال يرى في كل غار حراء، وفي كل جبل نوراً، وكان يلتمس أن تفيض السماء من جديد، ويأخذه

---

[161] إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 151.
[162] الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش، وهي في سياق ما تحدث به إقبال في باب ختم النبوة. تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 16.

العجب كيف يتماسك أولئك الذين تتنزل عليهم بوارق النور. لقد صعق موسى لما تجلى له قبس من الحق، وكان محمد تأخذه برحاء الوحي حتى يتفصد عرقاً، وأنت تنظر الى الحق نفسه في تبسم[163]:

أنـــا شـــوقي فـــوق أشـــواق الكلـــيم ثـــم إنـــي مـــدنف فـــي الحـــرم
هـــــو ولـــــى حينمـــــا كلمتـــــه *** وأنـــــا وليـــــت نحـــــو الكلـــــم

لا يتوقف إقبال عن السمو إلى السماء، لقد مر في تلك المدارس الرهيبة التي تخرج فيها الأنبياء، وعرف أسرار التنزيل، وبات يناجي الله بثقة واقتدار: وجهك إيماني أنا، قرآني أنا، وجهك هو هدفي الأسمى ومطمحي. إني ألفيتُ نفسي غريباً تحت السماء، فقل لي: إني قريب!؛ كي تغرب الشمس والقمر؛ فأعبر طلسم الأمس والغد[164].

إن من قال «هو الله» لا يحتويه هذا النظامُ الكوني ذو الأبعاد، فالروح لا تحتويها الجهاتُ، والرجلُ الحُر بمنأى عن كل قيد.

لـــن أرى ذاتـــي حتـــى أبصـــرك عند ساق العرش في عين الشهود
ســـدرة أبصـــر فيهـــا حضـــرتك *** حـــين لا يبقـــى قيـــام أو قعـــود[165]

هل أحسن إلى النبوة أو إلى الرسول أولئك الذين زعموا أن السماء قد قطعت صلتها بالأرض، وأوكلت الإنسان إلى مصائره، وهل كان وثوب العقل لعنة في مستقبل الإشراق حتى نحرم من وشائج الروح، وهل ستقول لنا السماء اذهبوا إلى حيث يطحن الفكر بعضه بعضاً، ويذهب زبده، ويفيض فيه ما ينفع الناس.

لا يشبع العاشق من أطلال حبه، يبكي ويضحك لا حزناً ولا فرحاً، كعاشق خط سطراً في الهوى ومحا. إن اعتكافي بالطور وجبل النور ليس لاقتباس نبوة جديدة، أنا من بشّر بنهاية النبوات، إنه موعد الإشراق الذي لا ينبغي أن يتوقف، إنه صوت الندى والري، حين ندرك أن في الروح ما لا تستطيعه الأجساد، أليس حراء منصة أمة وثبت في التاريخ فملأت الدنيا يقيناً وحباً وفرحاً ونوراً.

---

163 إقبال، محمد، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 140.
164 إقبال، محمد، ديوان جاويد نامة (رسالة الخلود)، ص 24.
165 هذه الأبيات وما سبقها وردت في سياق ما تحدث به إقبال في مطلع ديوانه صلصلة الجرس، ص 72 وما بعدها، باعتناء الغوري، وهي من نظم محمد حبش.

لا يطول به المقام حتى يستمع إلى حداء السماء وهو يبشره برحيق الغيب:

عطايانـــا ســـحائب مرســـلات ولكـــن مـــا وجـــدنا الســـائلينا
وكـــل طريقنـــا نـــور ونـــور ولكـــن مـــا رأينـــا الســـالكينا

ولـــم نجـــد الجـــواهر قـــابلات ضـــياء الـــوحي والنـــور المبينـــا
وكـــان تـــراب آدم غيـــر هـــذا وإن يـــك أصـــله مـــاء وطينـــا

ولـو صـدقوا ومـا فـي الأرض نهـر لأجرينـــا الســـماء لهـــم عيونـــا
تجلـــي النـــور فـــوق الطـــور بـــاق * فهـل بقـي الكلـيم بطـور سـينا[166]

هكذا يريد إقبال أن يتقدم المسلم من جديد حراً تائقاً لمجد الفيض الأعلى: ها أنا بالباب صب ضارع، أصف قدمي في محراب تجلياتك، لا ألتمس في مشهد الغيب ألواح موسى ولا قرآن محمد ولا شريعة حمورابي، إنني أبحث عن نور يقبسه القلب فيفيض به على الجوارح، وتشرق به الحياة...

لماذا يضن منبع الوحي وموعد الإشراق عن عطاء جديد، النور الذي أتهيأ للتسربل به، لا يشتمل على مشروع رسالة جديدة، لقد أكملت للتو رسائلي من مصدر العقل الذي ألهمتنيه، وليس لدي توق إلى شريعة جديدة إنني فقط أبحث عن استئناف فيضك.

إنه ينطلق إلى مشارق النور يلتمس تلك الأمواج النورانية التي سكبها الوحي في منطق الطليم وروح المسيح وفؤاد محمد، ويرى أن ذلك حق طبيعي للعابد السالك، فمشواره إلى الله مشوار حبّ وتألق ونور، وإقبال، على الرغم من ثقافته الغربية العميقة، ونمط العقل الأوربي الذي كان لغة العلم والمعرفة في حياته الدراسية، ظل مسكوناً بالروح، ولم تغير الأيام توقه وشوقه:

كـــل عصـــر كـــان فيـــه حنفـــاء لسـت وحـدي فـي ضـمير العـالم
لـــيس للعشـــاق وقـــت للريـــاء *** فـاحْبُني مجـد الشـهود الـدائم[167]

[166] الأبيات من ديوان صلصلة الجرس لمحمد إقبال نظم الصاوي شعلان، وهو في ديوان إقبال باعتناء عبد الماجد الغوري، ج1، ص 102.

ثم يروح يذكر بفخر وتوق نفحات الوصال التي يناجي بها أفق السماء الأعلى، وهو أسير في قماط الجسد، إنه هناك لأن من شأن كل سالك أن يكون هناك...

غـــارك الموعـــود إشـــراق الحيـــاة باســـط الرحمـــة مشـــدود القـــوى
هـــات إشـــراقك نـــوراً أو نشـــيداً *** نزلـــة أخـــرى إذا الـــنجم هـــوى

إنها آماله وأشواقه، وتوقه ووصاله، يلقيها في وادي الهوى على منصة الأسرار، ولكنه، على الرغم من زفرات تمرّده، يعود بالرغبة إلى محراب الشوق ويصف قدميه مع العابدين، ويلتمس كما كل عباده وعاشقيه رحيق الوصال الأبدي الموصول بنعيم الآخرة.

لـــم أزل أخلـــص فـــي دينـــي علـــى رغـــم مـــا أجهلـــه مـــن رحمتـــك
فمتـــــى تنقـــــل أشـــــواقي إلـــــى *** ســـدرة أبصـــر فيهـــا حضـــرتك[168]

لا يكف إقبال عن مطاردة السراب، ولا يهمه المعنى الفيزيائي للسراب، إنه معني بمعناه التربوي، إنه إرادة البحث عن الجديد واكتشافه، والغموض نفسه أكبر دافع للبحث عن الحقيقة.

لا تفرح إذا فقدت الرغبة في تعقب السراب، فالأماني ضرورية لمتعة البحث، والرجاء جوهري في كل إرادة.

أما آن لك أن ترتاح من جدل العقل وصخبه؟ الدين الحق ليس ادراكاً بل هو اتحاد، ليس نظرية بل هو سلوك، فتوقفوا يا أيها الواعظون عن تشقق الكلام وتدبيج الخطب النارية، وابحثوا عن رحيق اليقين في ضوعه وعطره وشميمه، تماماً كما يصنع الصياد، فإنه يركض في ابتغاء الغزال، ولكنه فيما بعد يركض من أجل مسكه وطيبه، إنه أرقى ما يسعى إليه الصائدون.

---

[167] الأبيات هذه المرموز لها بثلاث نجمات*** وما بعدها من نظم محمد حبش، وذلك للأفكار التي وردت في ديوان صلصلة الجرس كما هي في ديوان إقبال للغوري، ج1، ص 102، ولأفكار أخرى وردت في كتاب إقبال تجديد الفكر الديني، الصفحات 41 وما بعدها، ولاسيما الحوارات مع بروفسور هوبكنغ وبروفسور لوكاس.

[168] هذه الأبيات وما سبقها نظم محمد حبش، وهي في سياق ما تحدث به إقبال في تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 155.

انه صراع مستمرٌّ ذلك الذي شهده التاريخ الإسلامي بين أهل العقل وأهل الجمود، بين المؤمنين بقدرة الإنسان على ريادة العالم، وبين أولئك الذين ينتظرون أوامر الكهنوت، بين أولئك الذين رأوا القرآن رسالة هدى ونور، وبين أولئك الذين رأوه قفصاً من زخرف، وبين الذين آمنوا بروح النص، وبين الذين وقفوا عند ظواهره، إنه الصدام الذي ما زال قائماً بين العقل والنص، بين الفقيه والمحدث، بين الظاهر والباطن:

صور الوجود تموج نصب عيوننا فاملأ عيونك ما ملأت عيوني
بين المحقق والفقيه خصومة عصفت بمنبر ذلك المسكين

لما رأى الحلاج فوق صليبه كسر الصليب تعصباً للدين
ما بين منبر ذا وبين صليب ذا ** لم ألق غير خصومة من طين[169]

إقبال لا يهدأ ساعة من معاركه التي لا تنتهي، يحدثهم برسالته الهادرة فيزعج فرشهم الكئيبة، يدعوهم للقيام، فيرمقونه قاعدين، يخطب فيهم بما يجب أن يفعله الجمهور، ولكنهم يريدون منه ما يطلبه الجمهور، فتضطرم في إحشائه إرادة الحياة، وكيف يرجى لأمة قيام وهي تحترف المنام.

أنا سيفاً خرجت من غير غمد ضاع في غمرة المعارك غمدي
يحرج الناس منطقي وكلامي ** ويحارون في مرادي وقصدي[170]

ما الإنسان؟ إنه رسالته ومبادئه، وبغير ذلك هو علقة تائهة، أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة، وما له على الحيوان فضل قوة، وفي الكلاب والنواويس من هو أشد منه قوة وأحدّ بصراً وأكثر سمعاً....

والحديث عن محاربة الوثنية وتحريم عبادة الأصنام هو في الغالب شأن ديني، ولكن إقبال لم يقبل فصله عن سياقه النضالي كفاحاً في سبيل الحرية، حيث لم تكن تلك الأصنام

---

[169] ظاظا، زهير، نظم جناح جبريل لمحمد إقبال، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 1، ص 418.
[170] ظاظا، زهير، نظم جناح جبريل لمحمد إقبال، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج 1، ص 468.

إلا أدوات يستعملها المستبد في استرقاق العقل الإنساني، وراء كل صنم كان هناك سادن خاوي الروح مفتوح الجيب، يقوم بالتحدث نيابة عن الرب، ويصف للبائسين الحالمين بالغيب ما يتيسر من عقاقير الوهم، وما يكفي لفتح جيوبهم على مصارعها، واستباحة ما تبقى فيها من مال، وأحياناً من عرض ونخوة، بل إن هذا السادن كان يمتلك، إلى جانب مفاتيح الكعبة، قرار الحرب والسلم، يشنه على المخالفين باسم الآلهة، ويستنفر أحابيش الناس ودهماءهم إلى الحروب باسم الآلهة، وهي كليلة بكماء صماء، لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

كان العربي إذا هم بأمر يتوجه إلى الأزلام المائتة، فيستقسم بها، أو إلى طائر أبله فيرشقه بحجر، فإن طار صوب اليمن تيامن، وإن طار صوب الشام تشاءم، ولا شك أنه لا يوجد انحطاط في رسالة العقل وحرية الإنسان وكرامته أسوأ من هذا. لذلك كانت رسالة الشريعة واضحة في هذا السياق، فلا بد من الحرب على الوثنية الجاهلية إن أردنا إعادة الاعتبار للعقل والحرية. وبالفعل، أعلن النبي الكريم ثورته ضد الوثنية من دون هوادة، وفي هذا الجانب لم يقم أي شكل من التصالح مع الأصنام، وهو ما قصده إقبال بقوله:

ليس السجود تهدل الكتفين من طول القعود
ما كان أغنى عن سجود آخر فهو السجود**[171]

إنه جوهر الرسالة الأولى، التي بشر بها خاتم الأنبياء، حين أعلن رسالته في هدم الأوثان الزائفة أقبل عليه العبيد، بعد أن تسامعوا برحيق الحرية الذي يتنسم من معطفيه، وحين كانوا يأنسون لرسالته في دار الأرقم بن أبي الأرقم كان دهاقنة مكة يغلون بالغيظ، فالرجل رسول حرية، واللحظة لحظة الكفاح الإنساني للوصول إلى شاطئ الحرية الكبير، من خلال الحرية الموعودة والآمال الكبار التي تعلق بها الفقراء والعبيد، وهو كفاح لخصته آية قرآنية كريمة تحت عنوان: في سبيل الله والمستضعفين (النساء 75).

وخلال أعوام قليلة من الكفاح تبدل شكل جزيرة العرب، وبدلاً من السيد المخزومي والشريف القرشي وسراة بني عبد مناف ووجوه معد يكرب، ظهرت أسماء جديدة في

[171] الأبيات نظم زهير ظاظا من ديوان إقبال الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 518.

سماء الكرامة العربية ليس لها أنساب عريضة ولا ماضٍ مجيد ولا ثروات طائلة ولا دم أزرق، وصعد على سطح الكعبة بلال العبد اللاجئ من الحبشة، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، ونال الناس الحرية، وصار العبد القن شريكاً في صناعة بلده وبناء المستقبل.

هل جاءكم نبأ العقيدة عندما خرّت لها الأيام للأذقان
ومحت من الدنيا الفوارق بعدما ** محت الفوارق فطرة الإنسان[172]

لقد حققنا السعادة لأنفسنا ولمن لاذ بنا من الأمم، وأصبحت عواصمنا في دمشق والقاهرة وبغداد وقرطبة مراكز الرقي والتقدم العالمي...

ولكن كيف هبط العقل المسلم من سماء الاجتهاد إلى وهدة الهمود؟ ومن أفق الفكر إلى وادي التقليد، كل ما في دينه يدفعه للقيام ولكنه في حال سقوط مستمر:

أي عين قد أصابت ركبنا جعلته هائماً في كل واد
نهبت خيراتنا أجمعها لم نعد ننفع شيئاً للعباد

فتنة في القلب قد أودت بنا نحن أبناء أطباء القلوب
أين في وديانا الماء الذي قبل أحيينا به روح الشعوب

لم لا ينطلق التوق الذي يوقد الجذوة في صدر الحرم
حجب غطت عيون المؤمنين ** أن ترى زمزم قرب الملتزم[173]

لينين أمام الله

[172] هذان البيتان لزهير ظاظا، وهما محاكاة لما ورد في ديوان إقبال، ج 1، ص 72.
[173] إقبال، محمد، جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، ص 212.

وفي الحديث عن كرامة الإنسان، كتب إقبال لوحته الفريدة «لينين أمام الله»[174]، وأخذنا إلى مشهد حساب علوي بين الله وبين لينين، وهناك يقف ذلك الثائر الاشتراكي يقدم براهينه أمام الله، ويزجي اعتذاره عن تفريطه بالإيمان لأسباب اجتماعية وبرهانية.

وبخلاف الصورة السائدة عن لينين بوصفه عدواً للإيمان يقدّمه إقبال ثائراً بشرياً خاض كفاحاً ضارياً من أجل الإنسان!

ومع أن إقبال يحظى باحترام كبير في العالم الإسلامي، انفرد في مواقفه السياسية التي أثارت تعجباً وحيرة من محبيه وخصومه على السواء، فقد صرح مراراً بإعجابه الكبير بالقائد التركي مصطفى كمال أتاتورك، كما صرح بإعجابه بالحركة البابية التي رأى فيها قسيماً شيعياً لحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده السنية، ورأى أن الإصلاح الديني جوهر حقيقي لقيام الأمة ونهضتها، وأن من طبيعة الإصلاح التقدم بفكر ثوري هادر يعصف بالأيقونات جميعاً، ومن المؤكد أنه سيجرف في دربه كثيراً من تقاليد الماضي التي تسربلت رداء الثوابت الراسخة.

ولكن إقبال خطا خطوة إضافية في قراءته للكفاح الإنساني، وأثار دهشة محبيه في موقفه من قادة عالميين كبار عُرفوا بموقفهم الحاد من الدين ومن اللاهوت كله، ورُويت عنهم عبارات لا يمكن تأويلها في جحود الدين كله.

لقد أكد إقبال إعجابه بنيتشه بوصفه فيلسوفَ قيام وتمرد، جريء الثورة ملتهب المقاصد، على الرغم من أنه صرح بموت الله، ووضعه في متحف اللوفر!!

وقد استطاع إقبال أن يترسم من ملامح هذا الفيلسوف الثائر جوانب أخرى لا يقرؤها الناس في غمار صخبه وغضبه، فقد كان غضبه الهادر موجهاً أساساً إلى ذلك الدين الباهت البليد الذي يعلم أخلاق العبيد، ووجد إقبال نفسه يشاركه ثورته هذه، ويَعدّها قفزة نحو الإيمان، ونجح في تمييز ثورته على اللاهوت والأيقونات والكهنة والأخبار وليس على جوهر الإيمان.

ولكن موقفه الأشد عجباً كان اقترابه من الثورة الحمراء في موسكو، فقد رأى فيها نصيراً للمستضعفين والمحرومين والفقراء الذي يعانون أشد العناء من توحش الرأسمالية الضارية، والذين لم يكن لهم أن يستفيقوا لولا صيحات ماركس ووثوب لينين.

---

[174] لينين أمام الله، قصيدة لإقبال في ديوانه جناح جبريل، وقد نظمها زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال للغوري، طبع دار ابن كثير، ص 490.

في رائعته الفريدة «لينين أمام الله»، يدعو إقبال إلى الحكم على الأشياء بمقاصدها وغاياتها، وأن إمكانية الشراكة بين الإيمان والإلحاد ممكنة حين تكون الغاية هي الإنسان.

لم يشأ إقبال أن يخوض جدلاً لاهوتياً مع الماركسية التاريخية، وتبنى بشجاعة فلسفة نورث وايتهد التي تنص على أن الحقيقة ليست نصاً قارّاً وإنما هي جدل متلاطم، وراح يرسم بريشته الراقصة صورة المشهد الأخير حين يقف لينين مباشرة أمام الله....

ورائعة إقبال هذه نظمها زهير ظاظا، وقد تكون من أروع ما وصلنا من شعر إقبال، وهي تأملات تقفز قفزاً مريعاً فوق التقاليد المستقرة في علم الاصطلاح والرواية، إلى عالم الشعر والصورة:

يا من نرى في النفس والآفاق من آياته
الحق أنك واحد حي يقوم بذاته

ما يمكن في وجودك أن نكون على يقين
والعقل يخرج مرغماً عن طوره في كل حين

ما كان يدرك عقلنا في طيش نظرته السريعة
ما كنت ترسله من الأنغام في لوح الطبيعة

سيان رُصّاد النجوم ومن توغل في النبات
وقفوا على مرصادهم الكل ينقصه الثبات

اليوم أعلن بعدما شاهدت عالمك الأخير
أني وتعلم لم أكن وحدي هنالك في غرور**[175]

ولكن تسليمه بالقيام أمام الله لا يدفعه للندم على كفاحه الذي خاضه في الأرض ضد أطماع الرأسمالية المتوحشة، لقد ظل وفياً لمبادئه وشكوكه، وعاد من جديد

[175] الأبيات من نظم زهير ظاظا لجناح جبريل، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج2، ص 490.

إلى الحوار مع الله في الأسئلة القديمة: الوجود والخلود وغاية الخلق، إنها أسئلة لا يبليها الموت ولا البرزخ ولا الصراط ولا تطاير الصحف ولا رهبة الميزان.
من هو ابن آدم؟ ما الإنسان؟ أليست أجوبة الكهنوت البلهاء أكثر غموضاً من الأسئلة ذاتها؟ لماذا قدر الإنسان أن يخوض هذاه الحرب ضد الأطماع التي يريدها تجار الدين؟ إن ثورتي يا رب لما تزل جذعة ملتهبة، لن تنطفئ جذوتها حتى يتكشف أولئك الذين تاجروا بحياتنا وكفاحنا وإيماننا من أجل ثرواتهم وقمارهم:

قلبي يمزقه سؤال فيه فأذن بالسؤال
تركته خوفاً من عواقبه أباطرة الجدال

هذا السؤال وكان طول العمر يلقيني شريداً
ويثيرني تحت السماء أسى ويتركني وحيدا

هذا السؤال عن الأنام ولن أجور على الأنام
وأنا تضايقني مراقبة الطريقة في الكلام

فالمرء لمّا تعصف الأفكار في أرجاء روحه
لا يستطيع تخير الكلمات تخرج من جروحه

ما سر آدم يوم كان الطين صلصالاً عليه؟
من كان سيده؟ سؤال لا أوجهه إليه**[176]

إن رجال الدين أيها الرب قد انتبذوا في تراتيلهم على سواء، ولم تعد تعنيهم هموم عبادك، وأصبحوا يعيشون من كدنا وعنائنا، وباتوا يعملون أجراء لدى أهل الثراء من أجل تدجين الشعب وابتزاز رزقه.

[176] تتمة القصيدة، المصدر نفسه.

كيف يزعمون أنهم يعبدونك، وبطون الجوعى خاوية في حين أن بطونهم متخمة بفاحش الثراء، لقد بات جارهم جوعان، وهم يأكلون العشاء الرباني مع المترفين. كيف يزعمون أنهم يعبدونك وقد عقدوا تحالف الكنائس والمصارف في عبادة ذارية للذهب والفضة، آخر ما يخشع فيها فؤاد الإنسان؟

إيـــــاك يعبـــــد؟! لا أظـــــن وأنـــــت عـــــلام الغيـــــوب
عاصـــــرته أيـــــام كـــــان الـــــدين أفيـــــون الشـــــعوب

عاصـــــرته مترنحـــــاً بهياكـــــل الصـــــنم القبـــــيح
فـــي درب أوروبـــا التـــي انتصـــرت علـــى الشـــرق الجـــريح

تاهـــــت بأبنيـــــة المصـــــارف فـــــوق أبنيـــــة الكنـــــائس
وغـــــدا جميـــــع الفكـــــر إرهـــــاص الوســـــاوس

ربـــــاه أنـــــت القـــــادر الحـــــق الـــــرحيم العـــــادل
مـــــن ذاق مـــــن مـــــر المعيشـــــة مـــــا يـــــذوق العامـــــل؟

الرأســـــماليون مـــــركبهم يعربـــــد فـــــي بحـــــارك
فمتـــــى تغرقـــــه وتأخـــــذ مـــــن مظـــــالمهم بثـــــارك؟**[177]

وفي قصيدة لاحقة يعود إقبال لشرح موقفه من الثورة الحمراء، وما أوجبته مظالم الرأسمالية العاتية، ويحمل المسؤولية الأكبر للكنيسة التي قامت بتبرير مظالم الحروب، ومارست تعليم الرضا والخنوع للشعب المظلوم.

لم يعد صراعه مع الشيوعية في جدل اللاهوت، لقد تجاوز ذلك كله، وصار يؤمن بالفكر قدرَ ما يحقق في الأرض من عدالة وقدرَ ما ينصر المستضعفين.

لقد وقف مباشرة مع المشروع الإنساني، وانحاز إلى الفقراء والكادحين، ولم يشأ أن يخاصم الثائرين في وجه المظالم بقواطع اللاهوت:

---

[177] الأبيات من نظم زهير ظاظا لديوان جناح جبريل، وهي في ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج2، ص 491.

رباه لوحتك التي لم تكتمل جارت على السر الذي تطويه
الفكر حر لا يرد جماحه والحب لا مأوى له يؤويه

كُهّان خلْقِك في صفوف طغاتهم يقفون للعبّاد بالمرصاد
محن صباح مساء لا معنى لها إلا لجوء الناس للإلحاد

فقراؤهم من بؤسهم في سكرة والأغنياء من الرفاه سكارى
عبد يلمّ من الشوارع خبزه ** فقراً وآخر يطعم الأقمارا[178]

لقد كانت عبارات من نار أراد بها إقبال أن يشرح قول المصطفى: «ما آمن بي ساعة من نهار من أمسى شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم»[179].

خطاب الروح

تمهيد

إقبال لا يتردد في رسم ملامح معراجه، إنه يحدثك عنه بأدق التفاصيل، وقد شرحه بتفاصيله الجريئة في جاويد نامه، ولا يبالي وهو يكسر تلك القيود الموهومة التي تفصل بين المادة وبين الروح، ويقدم نفسه للعالم واحداً من الرسل الأرضيين الذين اتصلوا بالملا الأعلى، وعادوا إلى الأرض يحدثون بعجائب الملكوت.

وقد رأيناه في الفصل السابق، حين أصر على مبدأ ختم النبوة، معلناً ميلاد العقل الاستدلالي، ولكنه، في الوقت إياه، أعلن تدفق الإشراق وعقد حبال الوصل بين الأرض والسماء.

---

178 الأبيات نظم زهير ظاظا لجناح جبريل، وهي في ديوان إقبال باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 493.

179 حديث حسن، أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ج4، ص 164، عن ابن عباس، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

لا يبالي في طرحه غضب الكهنوت، فهو يرسم ظلال السماء بلون الضراعة ويحدد ملامح الصعود بروح الشجاعة، ويحيي في القلوب رسالة الإنسان.

والعروج إلى السماء ومناجاة الله عند ساق العرش هو شأن كل العارفين في الإسلام، والمعراجيات آداب عرفانية ما زال يكتبها العارفون في الإسلام اقتداء بصاحب المعراج الأول رسول الله، وهي في العمق تجاوب العارف مع نداء الله تعالى:﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (سورة البقرة 191)

تماماً كما تقرأ في الأدب الإسلامي معراج أبي يزيد وأبي العلاء وابن عربي وابن سبعين وابن الفارض وجلال الدين الرومي، وكلهم كانوا أهل أذواق وأشواق، وكلهم كتبوا بروح عميقة وثائق المناجاة بين الله وبين الإنسان، واشتهرت في رياض العارفين تعابيرهم ومناجاتهم: حدثني قلبي عن ربي...

إنه الجدل إياه الذي نبذله كلما تحدثنا عن معراج الرسول وإسرائه، أهو بالروح أم بالجسد، ولكن معراج إقبال كفانا مؤونة الجدل هذا فهو رؤيا حق يراها العارف في إلهامه، ويشهد تألقها في مدارج السماء، فيقول ويُقال له، ويسأل ويُجاب، ويشكو وتُسمع شكواه، ويدعو وتُجاب ضراعته.

يتخير في حواراته في الملأ الأعلى رضوان، في انحياز واضح لثقافة الجنة، وفي ريبة متزايدة من ثقافة الحجيم، وعلى منصات رضوان سيكون هذا الحوار العلوي الخالد الذي يحمل شكوى العارفين وأمانيهم وآمالهم.

حديث الروح للأرواح يسري ... وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به فطار بلا جناح ... وشق أنينه صدر الفضاء

ومعدنه ترابي ولكن ... سرت في لفظه لغة السماء
فحلقَ في رُبى الأفلاكِ حتى ... أهاجَ العالمَ الأعلىَ بُكائي

وقـــال البـــدرُ هـــذا قلـــبُ شـــاكٍ يواصـــلُ شـــدوهُ عنـــدَ المســـاءِ
ولمْ يعرفْ سِوىَ رضـــــوانَ صوتي * وما أحْرَاهُ عندي بالوفـــــاءِ[180]

ستكون لغة الحوار شاكية باكية، فما تختنق به الصدور لا تجرؤ على روايته الألسنة، وقد آن الأوان اليوم لرواية الشكوى كاملة، وللبحث في مكان آخر عن أفق الروح وأمانيها، وهناك يختار إقبال أن تبقى حواراته وشكواه خارج قيود الفيزياء، وأن يحتفظ للدين بحرمه وقدسه بعيداً عن صخب العقل وجدله.

كانت تأملات إقبال صدى لما أنجزه الفيلسوفان الغزالي وكانط، وقد عقد إقبال مقاربة دقيقة لما قام به الرجلان في وقت متشابه، فقد كان الغزالي يشهد صراع العقل والنقل، وكان كانط في اللحظة إياها، فالفلاسفة المدرسيون باتوا غير قادرين على إقناع الجمهور بحجج الكنيسة التقليدية التي استمرت الف عام، وكان التحول الذي طرحه سبينوزا وهيوم وحتى فولتير يعتبر تحولاً جذرياً باتجاه النقيض، وهي اللحظة التي ظهر فيها كانط بكتابه الكبير نقد العقل الخالص أو المحض، وأعاد التوازن للصراع بين العقل والنقل، ولكنه أفقد الثقة بالمصدرين جميعاً، ولكن الغزالي كما يرى إقبال تجاوزه بنقطة اخرى بالغة الأهمية وهي انه قرر بقاء مكان الدين في أفق آخر وهو التجربة الروحية، وبذلك ضمن مكاناً للدين خارج جدل العقل وتناقضاته.

مع المعلم جلال الدين الرومي

لا شك أن من أهم عوامل تكوين شخصية إقبال هو اتصاله بعالم جلال الدين الرومي، الفقيه الصوفي العارف الذي استطاع أن يرسخ في تاريخ الإسلام أركان مدرسة السلام الإنساني، وظلاله الكونية العابرة للأديان والطوائف والمذاهب.

وفي الحقيقة فإن إقبال استطاع أن يمزج بشكل فريد بين رجال العرفان في الشرق والغرب، ونجح أن يعقد بينهم روابط العرفان المشترك، وفي الوقت الذي اطّلع فيه إقبال

[180] الأبيات من ديوان صلصلة الجرس لمحمد إقبال، نظم الصاوي شعلان، وهو في ديوان إقبال باعتناء عبد الماجد الغوري ج1 ص142

على هيغل طالع مؤلفات ابن عربي، وكتب عن عرفانيات برغسون ولكنه هام في بساتين سنائي الغزنوي، وفي النهاية أعلن اكتمال مشواره العرفاني في حديقة المعلم الكبير جلال الدين الرومي، وأعلن أنه لم يجد مرشداً ودليلاً في رحلة حياته ومعراجه وكتاباته الشعرية سوى جلال الدّين الرومي، وكتب أغلب قصائده وأشعاره بنفس أسلوب الرّومي وعلى نفس الرباعيات (المثنوي) ويمكن القول إن إقبال أعاد اكتشاف جلال الدين الرومي وقد اعترفت له بذلك بلدية قونية التي تضم ضريح الرومي وتم تكريمه من قِبل بلدية قونيه وأُقيم له نصبٌ تذكاريٌّ في حديقة مقام جلال الدين الرومي.

ولا شك أن إقبال قرأ المثنوي بالفارسية وهي اللغة التي كتب بها جلال الدين، وعصفت أوتاره فؤاد الشاعر اللاهب، وكان اللقاء في وادي الحكمة حيث كتب إقبال أدق عبارات الشوق والذوق رقة وأكثر عبارات التمرد والعقل جرأة، ووجد في بستان الرومي ما يكفيه جدل الدليل وتأصيل الرواية، فقد رفع التاريخ مكان جلال الدين وصار قبره في قونية كعبة القاصدين ومنية السالكين، وهو فقيه حنفي متبحر مشهود له بالعلم والحكمة، وصار كتابه المثنوي قرآن العجم، وتسمح أبياته الخمسون ألفاً في إرشاد أي منطق فكري ينشده العقل وتهفو له الروح ويطرب له القلب.

وربما يتعين هنا أن نشير قليلاً إلى العصر الصاخب الذي عاش فيه جلال الدين وإلى المعجزة المدهشة التي نجح فيها جلال الدين أن يخرج من عصر الموت والخراب والدمار لينشئ بستانه الأخضر الطافح بالعطور والرياحين.

عاش جلال الدين الرومي في القرن الثالث عشر الميلادي (1207-1273) م وهو القرن الذي شهد خروج المغول من قمم الجبال التي عاشوا فيها لينساحوا في الأرض ويأكلوا الأخضر واليابس من العالم ويبنوا جماجم الرؤوس المقطعة على أنقاض المدن المتهدمة، وهي المشاهد التي لم يقرأ الإنسان في التراث المكتوب أشد منها هولاً.!!

كان عصر (جلال الدين الرومي) أعقد عصور التاريخ الإسلامي على الإطلاق فحياته التي تمتد من 604 إلى 672هـ هي فترة الغزو المغولي التتري الذي حطم معالم الحضارة الإسلامية، وأسقط كثيراً من أوابدها ورموزها.

و(رومي) لم يكن غائباً عن الأحداث في تلك الفترة الصاخبة بل كان يتنقل بين عواصم العالم الإسلامي المشتعلة فمن بلخ إلى نيسابور إلى بغداد حيث كانت مشاهد الموت تنطبع في خياله وهو يغادر تلك المدائن إلى أن استقر به المقام في قونية من أرض الروم.

ولم يكن أصحاب جلال الدين وإخوانه يعلمون أن ذلك الفقيه الهادئ الذي رأى مراكب الموت الجامحة بكل أهوالها، كان يطوي في صدره فلسفة كامنة ستمكث غير بعيد لتتبوأ محلها في تاريخ الفلسفة الإسلامية كواحدة من أنضج وأشمل الحلول لكل مشاكل الإنسان ومآسيه.

لقد كانت فلسفة رومي فلسفة حرب نشأت في وقت كانت فيه مذابح المغول والتتار تصخ آذان العالم الإسلامي، ولكن رومي كان يقدم في روائعه الرقيقة فلسفة الكفاح والنضال مخاطباً أولئك الذين أفلتوا من المجزرة وهم يرتقون جراحهم ويعيشون مآسيهم أنه لم ينته كل شي، وأن المجزرة ليست نهاية العالم، وأن أمام الإنسان كثيراً من النضال والكفاح في هذه الأرض.

ولعل من المناسب أن نذكر هنا بفلسفة غربية نشأت في ظروف مماثلة وهي الفلسفة الوجودية التي نشرها جان بول سارتر في ظروف مماثلة، فقد أطلق الفيلسوف الفرنسي فلسفته في ظروف الحرب العالمية الأولى والثانية، فكانت فلسفة الأنانية والغثيان والقنوط، وأصبحت الأنانية أم الفضائل في عالم لم نعد نفهمه ولم يعد يفهمنا، لا دري فيه من أين جئنا ولا ندري اين نرحل، وفي النهاية صرخ الفيلسوف الوجودي: أنت أيها الجسد هو الحقيقة الوحيدة في العالم، الروح أوهام والعدالة أحلام، والسلوك الأخلاقي الوحيد الذي يجب أن تنجزه في العالم هو استنزاف الشهوات إلى الغاية، فلا حدود لحريتك أيها المغدور من سلوك الآلهات، فخذوا الحياة أيها الناس كما هي، وتقاذفوها تقاذف الكرة، فوالذي نفس سارتر بيده ما بعد الجنة من دار، ولا في القبور من قرار، وإن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر!

هكذا انعرجت فلسفة سارتر عن قلق وحيرة ويأس، ووجد ملاذه في الغضب الماحق من الآلهة جميعاً، ونصب من الإنسان إلهاً جديداً عابثاً، من حقه أن يتصرف بهذا العالم مثل فيل دخل إلى قاعة فخار، حيث لا معنى لسؤال الإنسان عن أهدافه ورسالاته، فلا شيء بعد هذا الجسد، ولن تبلغ النفس في هذا العالم شيئاً من يقين.

أما فلسفة رومي التي عاشت ظروف الحرب إياها، وشهدت توحش الاكتساح المغولي للمدائن الإسلامية المنكوبة، فقد استطاع الرجل أن يعيد رسم لوحة الحياة بريشته الهاربة من دمار المدائن، ونجح في أن يستنسخ من الموت نفسه رواية الحياة من جديد.

الروح عند جلال الدين هي حقيقة الإنسان وهي خلوده، وهي التي لا يجوز أن يلحقها الفناء، والروح حتى وهي في هذا القفص الجسدي العابر، لا يمكن أن تكون شيئاً تافهاً على الإطلاق، بل هي في سجنها وأرقها تسخر الوجود وتملؤه بالحب والجمال.

وأسمح لنفسي بسرد بعض قصائد المثنوي التي نظمتها للمعلم الكبير، ولا أشك أنها كانت من أعمق ما شرحه إقبال من جديد بشعره الأسطوري

كتب في الأمل:

قالت الروح وقد أرهقها قفصُ الأبدان في دنيا الممر
أنا بدر إنما قوسني ألم العشق وأضناني السهر

لست بالميت ولو غيبني عبث الدهر وآذاني القدر
سوف أغدو مشرقاً من غربتي *** وأعيش الدهر في كر وفر[181]

ثم يمضي جلال الدين يستنطق الجماد الصامت ويبني على أساس سلوكه فلسفة الكفاح، لقد كانت صورة الحضارة الإسلامية آنذاك على غاية من الضعف والشيخوخة، وكان (جلال الدين) يعلم ذلك ويفهمه، ولكنه كان لا يرضى لروح المسلم أن تشيخ بل كان يريدها في شباب دائم لا توهنه عوارض السقم وفي ربيع مشرق لا يقنطه برد الشتاء، فكان جل خطابه للروح يقدسها ويمجدها ويأمرها أن تبعث الحياة من جديد في تلك الأبدان الواهنة الزاغبة بسكرات الموت.

حبة القمح إذا تدفنها تجعل الأرض مخاضاً مستمر
وإذا تطحنها صلب الرحى فهي بعد الطحن طعمى للبشر
وإذا تسحقها أسنانهم *** فهي للعاقل لبٌّ وفكر[182]

لقد كانت رسالته أن المؤمن لا يموت أبداً، وأن رسالته في الأرض مستمرة مهما عصفت بها عواصف الأهوال، وأن عليه أن يقوم بعد كل موت ليستأنف رسالته في نشر المحبة والسلام.

---

[181] الأبيات وما بعدها من نظم المؤلف، وهي في سياق ما أورده جلال الدين الرومي في المثنوي، ترجمة عبد اسلام كفافي، ج 1، ص 153.
[182] المصدر نفسه.

ولعل أوضح ملامح رسالة الرومي ما تراه عند قبره في قونية حيث تتأسس الحركات المختلفة بين الحين والآخر لتجعل من قبره روضة المحبين وليتلاقى عند ضريحه رجال من أديان مختلفة، ومذاهب مختلفة ليغنوا هناك ويرقصوا لوجه الحب وحده، حيث تصبح الأرض بحق قطعة من فردوس العشق الموعود!!

وهكذا فإن قيامة الشرق التي أفرزها غزو التتار أيقظت فلسفة (الرومي) على أساس من الإيمان، فكانت فلسفة الحب والحياة والخير والأمل، وفي ضياء ذلك كتب روائعه الشهيرة وخلدها في المثنوي.

إنك تدخل المثنوي شاكاً متردداً، ولكنك سرعان ما تجد نفسك في زورق جلال الدين في عباب البحر، وهو يمد مجدافه إلى قاع المحيط، ثم يقلب به القمر والنجوم ويعود بكثير من رمال الصحراء وخضرة المزارع، ويمنحك في كل حال دفء حكمة، ونور معرفة.

ويمكن عزو مواقف إقبال، وحواراته التي لا تنتهي مع الله، ووقوفه في معراجه الروحي الشهير، إلى تجارب جلال الدين الرومي التي قدمها مريد عاشق في محراب الشوق يخاطب ربه كل يوم، ويعود بفرائد الحكمة وبديع البيان.

إنه لا يجهل مكانه في هذا الكون اللامتناهي، ولكنه على يقين بأن جوهره في الكائنات فريد، وأنه سر الله وصورته وروحه وحكمته، لا يعوقه إلا تزاحم العشاق في مملكة الله:

عاشق أرهقني في مطلبي ... زحمة العشاق في مملكتك
لست أعلاهم ندى أو نادياً ... بيد أني واحد من خدمك

أنا لا أجهل أني قطرة ... ربما تافهة في ضرمك
إن أغب أنسى وإن أحضر أغب ... بيد أني واحد من خدمك

تعــرف الخــدام مــن ســر الملــوك ربمـــا أكثـــر مـــن نوابهـــا
أعطنـــي مـــا أتقـــي فيـــه الشـــكوك *** فلقـــد زلزلـــت ففـــي زلزالهـــا[183]

وفي موقف أشدّ جرأة وطموحاً، يسلك رومي ما سلكه ابن سبعين من قبل حين اعتكف في غار حراء ينتظر تدفق الوحي من جديد، ولم يصدق أبداً أن يكون ربه قد ودع هذا العالم أو قلاه، وظل يتلو أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده. ومع أن إقبال لم يُعرف عنه العكوف في الغار، جعلَ العالمَ كله غاراً، ثم أطلق في ديوانه «أرمغان حجاز» قصة معراج فريدة مضى فيها إقبال في حوارات فريدة مع أنبياء وملائكة وشياطين وقياصرة ودجالين، وكان يستنطق كل شيء ليؤكد الحقيقة الباقية وهي أن عنابر السماء لم تغلق على أهل الأرض، وأن الإشراق ما زال قادراً على أن يتدفق من جديد، وهو نفسه ما كان يعبّر عنه السادة الصوفية حين أطلقوا على أنفسهم مصطلح الخلجلوتية، أي الخلوة في الجلوة، والصحو في المحو، والحضور مع الشهود:

قـد أتينـا الغـار لـم نبصـر بـه نزلـة أخـرى ولا جبريلـــــــه
إيـه يـا ذا النـور فـانفحني بمـا أفهـم التنزيـل مـن تأويلـــــه[184]

ورقيـت الطـور لـم أسـمع بـه لحـن مـا أسمعت موسـى مـن كلـم
أيـن مـا أسـمعته موسـى بـه *** لـمّ لـمْ يشـرق بـه قلبـي ولـم؟

وفي مناجاته العميقة كان إقبال يتحدث عن الفيض الإلهي الذي نال الكشف من خلاله العارفون، وصرح مراراً أنه يرى هذا الفيض شأناً إلهياً مستمراً، وأنه صفة قائمة في ذات الله تعـالى، فشـأنه الفـيض والإشـراق، وشـأننا المناجـاة والأشـواق:

أنـا فـي الغـار علـى الوعـد الـذي أطلقـت فيـه مواجيـد محمـد
أرتجـي طيـف حـراء إننـي لـم أزل فـي الغـار أدعـوك وأشـهد

---

183 هذه الأبيات وما بعدها من نظم محمد حبش لما أورده إقبال في ديوانه زبور العجم، ص 374 وما بعدها، باعتناء الغوري عبد الماجد، طبع دار ابن كثير.

184 المصدر نفسه.

لـم أزل أخلـص فـي دينـي علـى رغـم مـا أجهلـه مـن حكمتـك
فمتـــى تنقـــل أشـــواقي إلـــى ســدرة أبصــر فيهــا حضــرتك

مرتجـــى داود فـــي مزمـــوره أمـــل عـــاش عليـــه الحنفـــاء
وبـــه موســـى فـــي طـــوره *** رب فاجعـل كـل شـعبي أنبيـاء

وفي ضراعته التي كانت تبعث النور في الليل والوصال في النهار، كان يفخر بطول ضراعته، ويتحدث عن صبابته ونحوله في رحلة الوصال، وكان يلتفت إلى الله تعالى ليكشف عن مكابدته في رحيق الوصال، وتوقه إلى ذي الجلال:

أعلى رغم الذي هتكتـــــــــه مـن ثيـابي لـم تـزل تنكـر وجـدي
فمتـــى تعلـــم أنـــي فـــي الهـــوى *** بعـت أمسـي ومصـيري وغـدي[185]

من حقنا أن نقف في محراب جلال الدين الذي يتأمل فيه إقبال: لقد وقفت في محراب العاشقين، ومارست زفراتهم وآهاتهم وأناتهم، وها هو نحولي وسهادي شاهد على الشوق والحنين، فلا تحرمني وصالك، لقد صوَّح النبت فاسقه شربة من سحائبك وأغثني فإنني في ترجي مواهبك.

لا أجهل وهاء حالي وبؤس مقالي، ومن أين لي وأنا ابن الطين أن أتطلع إلى عالم الملكوت الأعلى، أنا ابن الصدف وليس لي من بريق اللؤلؤ شيء، ولكنني أصلح حضناً ودفئاً وحناناً، فأذن بالوصال واسمح لهذا القلب الملتهب أن يطفئه نور حنانك

خـــذ إلـــى أســـرك قلبـــي فلقـــد طـــال التهالـــك
أنـــــا لا أرغـــــب أن يهتـــك حبـــي وجمالـــك

أنـــت كاللجـــة لا ســـاحل لـــك وأنـــا الجـــدول لا ســـاحل لـــي
قـــل لهـــا تأخـــذني فـــي حضـــنها وأرحنـــي مـــرة مـــن ســـاحلي

---

185 المصدر نفسه، والكلام من نظم محمد حبش.

إن أكــن قوقعـــــــــــــة فارغــة أيُّنــا المسـؤول عـن هـذا السـلوك
أنــت مــن يجعـل مـن هـذا الحصــى جوهراً يلهب تيجـــــــان الملوك

ربِّ مــا قــدرت لــي رجــع الربيــع فــاحفظ اللهــم هــذا النفـــــسا
فعســـــى تـــــروي بـــــه قبـــــرة ذلــك الغصــن الــذي قــد يبســا

مـــع مـــا أرهقنـــي عـــبء الحيـــاة مـــع مـــا أخرجتنـــي مـــن جنتـــك
ســـترى كـــم توبـــة فـــي صـــفحتي وأرى كـــم رحمـــة فـــي صـــفحتك

أنـــا قـــد يحمـــر وجهـــي خجـــلاً حـــين تبـــدو صـــحفي بـــين يـــديك
فرجـــــائي عنـــــدما تقرؤهـــــا ** أننـــي أنظـــر يـــا رب إليـــك[186]

ومع أن وصاله بالله تعالى مسألة روح وقلب وقرة عين، لا يزال يقرأ في كل تجلٍّ لله بريقاً في عين الحياة، وإشراقاً في مغانيها.

سبحانك يا من نرى في كل أفق تجلي جلاله، ونرى في كل روض تجلي جماله، ونرى في كل ليل تجلي وصاله، ونرى في كل غيث تجلي نواله، ونرى في كل زهر تجلي دلاله، ونرى في كل خلق تجلي كماله.

تطوف عيناه في صفحة الملكوت، فيقرأ في رسائل الله دروس الحياة، تلهمه من جديد دروس الحياة البصيرة.

لا تقتبس نورك من السوى، ابعث أنت في ذاتك إرادة الحياة والنور، اقتبس من جوهرك نورك ونارك، إن روح الله فيك فلا يليق بك أن تستعير من الغريب طاقة وناراً.

هو نفحة في الإشراق، ولكنه أيضاً درس في السياسة، وهو خطاب للقلب المسلم ولكنه أيضاً درس للأمة المسلمة، والنور الذي أودعه روح الله في قلب ابن آدم، هو أيضاً ما أودعه الله في هذه الأمة، وحري بها أن تقتبس من ذاتها جذوتها وتوقدها. إن الاعتماد على الغرباء لن ينتج قياماً صحيحاً، ثوب العارية لا دفء فيه وطعام العارية لا عافية فيه.

---

186 نظم زهير ظاظا، جمعها عبد الماجد الغوري، ديوان إقبال، ج2، ص 407.

شـــردت نفســـها النجـــوم ولكـــن لـيس عـن صـدفةٍ ولـيس اعتباطـا
لفـــراق يـــؤول كـــل وجـــود إن يكـن مصـدر الضـياء اختلاطـاً

يظهـــر البـــدر آخـــر الليـــل فـــرداً أصـــفر الوجـــه مكفهـــرّاً شـــريدا
كـــل نـــور أخذتـــه مـــن غريـــب ســـوف تخبـــو بـــه رويـــداً رويـــداً

قلبـك الشـمس فـاقبس النـور منـه كـل مـا ترتجيـه نفسـك عنـدك
كـل شـيء سـواك أنـت سـراب ** شـهد الله أنـك الحـق وحـدك[187]

وهي المعاني نفسها التي علمها جلال الدين في المثنوي، حين صرخ أنا في ذاتي جذوتي وتوقدي، لا تلتمس نورك من غريب، لا دفء في ثياب العارية، اصنع مستقبلك بيدك ولا تسمح للآخرين أن يشكلوك، أنت من يشكل صورة هذا العالم ومستقبله وأيامه:

يقـــول الجـــدار إذا مـــا اســـتنار أنـــا كالثريـــا أضـــيء النهـــار
فتبتســـم الشـــمس ثـــم تقـــول ســـتعرف شـــأنك بعـــد الأفـــول

وإذ يخضـر العشـب وقـت الربيـع يقـول بفضـلي اخضـرار الجميـع
فينطـق صـيف الزمـان اللطيـف *** سـتعرف لونـك عنـد الخريـف[188]

إقبال ينطلق بوحدة الشهود من كونها ذائقة صوفية عرفانية إلى كونها رسالة اجتماعية، إنها وحدة الشهود التي التزمها العارفون بالله في وعيهم بحضور الله تعالى في الأشياء، بعلمه وإحسانه وإكرامه، وحضوره في الإنسان بروحه وفيضه، وانبثاق الإنسان عن الله...

إنها أشكال متعددة من الإحساس بالحق سبحانه، يدنو إليه أنبياؤه فيكلم من يشاء وحياً أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، والسعيد السعيد من تخصه الأقدار بشرف اللقاء، فتشرق روحه بالعرفان وقلبه بالنور.

---

[187] ديوان جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجده في ديوان إقبال، طبع ابن كثير، ج 1، ص 448.

[188] هذه الأبيات وما بعدها نظم محمد حبش لمثنوي جلال الدين الرومي، وهي في كتاب فصول من المثنوي، ص 69، طبع المؤسسة العصرية بيروت 1966

ما النبوة؟ إنها مسألة إشراق، إنه العابد في الأفق الأعلى، ينقطع رجاؤه مما سوى الله، وينصرف عن الأغيار فيشرق الله تعالى في قلبه بالنور والحكمة:

قالـــت الأنجـــم للبـــدر المنيـــف أي ســـر ذلـــك الوجـــه الوضـــي
قـــال إنـــي بشـــر مـــن حمـــأ *** مـــثلكم لكنمـــا يـــوحي إلـــي

ويتقدم إقبال في معراجه الروحي فيتكلم من الأفق الأعلى عند سدرة المنتهى عن الذات الإلهية، ويدلي في الملأ الأعلى بدلوه في ديوان العاشقين. وعلى الرغم من نزعته العقلية الحادة، يدهش العالم بقراءته الفريدة للعلاقة بين الناس وبين الله، وفي ملكوت الله يسجل إقبال اسمه في ديوان العارفين مناجياً الله تعالى بسطور لم يقرأها من قبله ناسك أو عابد:

اللـوح أنـت ومـا فـي اللـوح مـن قـدر وكـل مـا فيـه مـن سـطر ومـن كلـم
لـو تنطـق القبـة الزرقـاء مـا كـذبت بأنهـــــا ذرة فـــي بحـــرك العـــرم
لـك الجـلال الـذي لـم تبـق روعتـه ** مـن ملـك سـنجار إلا عبـرة النـدم[189]

الصلاة إذاً تعبير عن توق الإنسان إلى من يستمع نداءه ورأيه في سكون العالم المخيف، وهي تعبير عن الذات بوصفها عاملاً مؤثراً في حركة الكون.

وفي مناجاة الملأ الأعلى يلتفت إقبال إلى أولئك السالكين الذين رسموا شكل وصالهم بالله على نسق لا يفهمه الفقهاء، وباحت ألسنتهم بما لا يمكن تبريره وفق قواعد الأصول والمنقول والمعقول، ولكنهم في حضرة الشهود كانوا يقرؤون مجده من أفق آخر، وكانوا سعداء بوصال المحبوب، ولو كان في ذلك قطيعة الدنيا. وهناك يسرد إقبال حكاياتهم وأخبارهم، ويستعرض ما بين الجنيد رائد الإشراق الأول الذي تقبله الفقهاء إلى طيفور البسطامي (أبي يزيد) الذي اتهموه بالزندقة إلى الحلاج الذي أعلنوه مرتداً وكافراً وزنديقاً، ولكنه عند إقبال كان مؤمناً يرى نور الله من أفق آخر يشترك فيه مع أهل البصيرة والعرفان:

[189] جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 501.

لــولا جمالــك مــا ذاق الجنيــد نــوى ولا أهيــل علـــى طيفـــور بـــالتهم
نـــداك لا تعـــرف الأنســـاب نفحتـــه يـا مـن غمـرت جميـع النـاس بـالكرم
إن لم تكن نصب عيني في الصلاة فلا ** قامت على الزور في محرابها قدمي[190]

لا ينكر إقبال رسالة العلم، ولكنه يتقدم عليها برسالة القلب، إن جدل العقل والنقل لا يطفئ مساحة الشوق، فللروح ملعب آخر، فليذهب العقل في جدله مع النقل إلى الغاية، ولكن مسرح العرفان له حدائق أخرى لا تشبه تلك الجدران المحصنة في عالم العقل وعالم القلب.

العشق مدرسة مختلفة، رحيقها وعطرها ولونها وشميمها لا يشبه عوالم النقل والعقل المركومة بصحائف الكتب وشروط الوراقين، وحين يعود الفيلسوف من حواراته المضنية، وتتهدل حواجبه المنهكة على عارضيه يبدأ القلب سراحه في عالم آخر ليس فيه عناء الجدل، ولا توثيق الأسانيد، إنه مشوار الروح السابحة في حضرة الله تعالى:

قــال لــي العلــم غــروراً إنمـــا العشـــق جنـــون
قــال لــي العشــق مجيبــاً إنمـــا العلـــم ظنـــين
فمـــن العشـــق شـــهود ومـــن العلـــم حجـــاب
مــن لهيــب العشــق ثــارت ثـــورة فـــي الكائنـــات
معجــزاتُ العشــقِ ملــكٌ زانـــه فقـــرٌ وديـــن
وعبيـــد العشـــق أدنـــاهم لـــه عـــرشٌ مكـــين[191]

*

[190] جناح جبريل، نظم زهير ظاظا، وتجدها في ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 502.
[191] عزام، عبد الوهاب، ديوان ضرب الكليم لمحمد إقبال، نشر جماعة الأزهر، ص 24.

ويكتمل عرفان إقبال بلقائه المعلمَ الأكبر جلال الدين الرومي، وفي نص فريد عابر للزمان والمكان والأديان، يلتقي إقبال جلالَ الدين في معتكف روحه، ومنبع إشراقه، وهناك ساءله إقبال عن كل شيء، واختار أن يحرر حواره معه ليكون وثيقة للتاريخ، يمزج فيها الزعيم الإسلامي الهندي تساؤلات المحامي المحترف وآهات الشاعر المحترق والفيلسوف المتهدل الحاجبين.

وكتب إقبال:

صير الرومي طيني بشراً من غباري شاد كوناً آخراً[192]

وقد ردد كثيراً من كلماته في أشعاره التي كتبها بالأوردية والفارسية، أو في كتاباته التي سردها بالإنجليزية، وتمثّل الرومي بصدق، ولأنه عشق مولانا الرومي جعله جبريل الصديق الذي صاحبه في معراجه الأخير إلى السماء، واخترق سماءه الخاصة ليكون إشراقاً جديداً، وتولد الباكستان من بعده، لتشهد عالماً لم تكن شهدت نوره من قبل، ويصير ذكر إقبال فيها على مرّ الأجيال.

وجلال الدين الرومي رائد التاريخ الإسلامي في فقه الأشواق والأذواق، وهو أوضح من صرّح برفض احتكار الخلاص، ورفض احتكار الحقيقة، وهو من ناضل سراً وجهراً من أجل إخاء الأديان وكرامة الإنسان.

رسالته وكفاحه وضريحه وتراثه ومثنويه وتلاميذه يمكن أن يعبّر عنها جميعاً برسالة الإخاء الديني، دين بين الأديان، وليس ديناً فوق الأديان، ونبي بين الأنبياء، وليس نبياً فوق الأنبياء، وأمة بين الأمم، وليس أمة فوق الأمم.

إنها شروط بسيطة تلك التي رسمها جلال الدين ملامحَ لدعوته، وهي التي كان يدور حولها في رقصته العالمية الشهيرة حيث يذوب الكل في الواحد، وتعود الألوان جميعاً إلى طيفها الأول، ويظهر جمالها متنوعة، ويظهر صفاؤها بيضاء طهوراً، وتبدو الكائنات كلها في طواف لا ينتهي حول الذات الواحدة، التي هي مظهر الخلود.

---

[192] هذه العبارة سمعتها مراراً من الشيخ جودت سعيد نقلاً عن إقبال، ولكني لم أجدها في دواوينه.

ولكن هذه الشروط البسيطة، التي طرحها الرومي، أصبحت اليوم مدخل المسلم إلى هذا النادي الحضاري الإنساني، وشرط مشاركته في عصر العولمة وما بعد العولمة، فلا مكان في العالم الجديد لمن لا يؤمن بالإنسان، ولا يعيش إخاء الإنسان للإنسان.

لقد نجحت أيها الأستاذ في هدم حواجز التفاصل منذ القرن الثالث عشر، وصنعت في قونية عالماً من الإخاء يلتف حول ضريحك حيث تتآخى الأديان وتتكامل الفلسفات، ويعانق الفكر بعضه بعضاً، ولا يبغي فيه جبل على جبل، ولا رجل على امرأة، ولا حر على عبد، وأصبح حول ضريحك بستان الإخاء الإنساني.

لقد وصلت الإنسانية إلى النقطة ذاتها، ولكن بعد أن تهشمت بالحروب وسفك الدماء، فهل كان على الإنسان أن يشهد حربين عالميتين مجنونتين وأزيد من خمسمئة حرب إقليمية حتى يدرك بعد كل هذا العناء أن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره؟!

أنت أيها المعلم نسجت لنا عباءة الأسرة الإنسانية الواحدة في هذا العالم، وأنت من كشفت روابط القربى ووشائج النسب بين الإنسان والإنسان، والآن أين يمكنني في هذا العالم أن أجد طباً لدائي؟ وأي صيدلية تلك التي تكتنز مرهم مواجعي؟ وأين يمكنني ان أجد ذاتي في هذا العالم المتلاطم؟ وأين هي مراهمي ودوائي؟

قال يا من ملأ الشرق ... بما يحيي القلوب
ما الذي يعصف بالشرق ... وما داء القلوب؟

قال ما أعرف شعباً ... مات إلا مات لمّاً
حسب الأحجار بخوراً ... وظن الشهد سمّاً

قال يا شيخ وهذا ... المسلم الضائع كونه
دمه أصبح ثلجاً ... عطره غاب ولونه

قال يا إقبال ... إن الله لا يظلم شعباً
ورجال الله لا تجرؤ ... ان تجرح قلباً[193]

[193] هذه الأبيات وما يتلوها من نظم زهر ظاظا لديوان إقبال جناح جبريل، وهي في ديوان إقبال، طبعة ابن كثير، ج1، ص523.

**

وسأله إقبال: أيها المعلم.

لقد تحير فؤادي بسيرتك ومسيرك، ثورتك العارمة تملأ فؤادي بالجلال، لقد أنجزت رسالتك، ولكن جوارحك لا تزال في لهيب، ما الذي يبعث فيك هذا القلق، أما آن لك أن ترتاح من عناء هذا العالم وتركن إلى فراش اليقين؟

قال يا أستاذ ما الحرب ... التي تملأ صدرك
أنا ما جئتك إلا ... قلت لي قلبك قلبك

قال يا إقبال لسنا ... أهل فقه وأصول
إنما القلب سماء ... عرشه في مستواها

هو ذا قلبي بصدري ... وأنا حلف طريقي
بين كدٍّ وخمول ... ملء مرآتي بريقي

قال يا أستاذ فكري ... للسموات دليل
وأنا في الأرض هذي ... خائر العزم ذليل

قال رومي بعدما استرسل ... في الكون الكبير
في سماء الله يسري ... من على الأرض يسير

قال يا أستاذ لا ... أبصر في الدرب مناراً

أيــن مــن يقــدح للحكمــة فـــــي قلبـــــي منـــــاراً

قــال يــوري العلــم نــاراً يـــابس الخبـــز الحـــلال
والــذي يأكــل كــدّ النــاس يفنيـــــــه الضّـــــــلال

كــل مــا فــي الشــعر هــذا مـــن صـــراخ وصـــياح
إن مـــــا يـــــدهش أن يـذهب أدراج الريـاح!![194]

**

ولعل من الواجب أن نعترف بأن كثيراً من الحوار بين الرومي وإقبال لا يزال في غوامض الكلم، وهو محل بحث ودراسة وتأمل، وما زال في جعبة إقبال كثير مما باح به الرومي وما زال في بوح الرومي كثير مما لم يسجله إقبال، ولكن هذا اللون من الحوار لا يحتاج إلى وثائق رواية قدرَ ما يحتاج إلى روح جديدة تستنطق تجارب التاريخ التي خاضها الرجلان الكبيران.

الرومي هو القبلة التي قرأ على جدرانها إقبال كل ما يفيض في روحه، هو الرجل الذي استطاع أن ينقله من حائر هندي إلى رسالة إنسانية، إنه المعراج الأخير الذي طاف به إقبال على الملأ الأعلى الذي يسكن هذه الأرض، أو الذي بوأه الرومي منازله على الأرض، وأصر أن يجعل من غبار حروبها بستان ورد ورحيق.

---

[194] الأبيات من ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 524.

هكذا رسم الرومي آماله وأمانيه، ولأجل هذا صلى إقبال، وفي تلك المدرسة مارس الترتيل والتنزيل، ولاتزال سجداته على حواشي الضريح تلهب التائقين إلى وصال الروح حيث جنة الله على الأرض.

ولعل إقبال سيكون أسعد الناقدين لو أنه قرأ دواوينه كلها تحت عنوان: هكذا تكلم رومي!!!

وبعد.....

لقد مضى قرن من الزمان سكن فيه إقبال في القلوب عزيمة في الأفئدة، وأغنية على الشفاه، ولوحة في محادج العيون ترسم كل ما هو جميل ومثير.

ولا يزال ينفخ فيك من روحه وناره بخطاب الحرية والكرامة والتضحية، يدعوك أن تكون سيد قدرك، وأن تقرأ كتاب التاريخ كما كتبوه، وكتاب المستقبل كما تخطه بيمينك وترسمه بريشتك وتصنعه بساعديك:

ثورتي البيضاء في أرض الحجاز بيد قل لي أين منها ثورتك
أنا ماضيك الذي تذخره *** بيد قل لي أينه مستقبلك؟[195]

ويروي أبوالحسن الندوي أن إقبال قبل رحيله بدقائق التفت بوجهه صوب الغرب وقال:

نفحات مضين لي هل تعود ونسيم من الحجاز سعيد
آذنت عيشتي بوشك رحيل * هل لعلم الأسرار قلب جديد[196]

[195] من نظم محمد حبش لما ورد في ديوان صلصلة الجرس لمحمد إقبال، ديوان إقبال باعتناء الغوري، ج1، ص 103.
[196] إقبال، محمد، ديوان بيام مشرق (رسالة الشرق)، طبع مؤسسة هنداوي، ص 10.

ومن المناسب في الختام أن نهدي إقبالاً كلمات من شعره وسحره، لا نشك أنه كان يرددها ساعة الرحيل:

قال الرشيد لابنه يوصيه ها أنذا احتضرت
ستمر بعدي أنت في هذا الطريق كما مررت

أبني إن الموت نور في عيون المؤمنين
والنور هذا لاتشاهده عيون الكافرين**[197]

[197] الأبيات من ديوان إقبال، الأعمال الكاملة، طبع دار ابن كثير، باعتناء عبد الماجد الغوري، ج2، ص 548

مصادر البحث

الغوري، عبد الماجد، ديوان إقبال، طبع دار ابن كثير، دمشق، 2007، وقد اعتمدنا هذه الطبعة بشكل رئيس للإحالة، كونها تجمع الدواوين التسعة لإقبال.

- إقبال، محمد:

ديوان جناح جبريل، نظم الشاعر زهير ظاظا، طبع دار إقبال، دمشق، 1998.
ديوان أرمغان حجاز، نظم زهير ظاظا، نسخة غير مكتملة، حصلت عليها من الشاعر شخصياً.
ديوان ضرب الكليم، ترجمة عبد الوهاب عزام ونظمه، طبع المجلس الأعلى للثقافة بمصر، 2004.
ديوان بيام مشرق، ترجمة عبد الوهاب عزام ونظمه، دار كلمات، القاهرة، 2013.
تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، طبع دار الهداية.

- جمال الدين، محمد السعيد، تحقيق ديوان رسالة الخلود لإقبال، طبع دار الشروق الدولية، جاكرتا.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني، روائع إقبال، طبع دار الفكر، دمشق، 1976.
- البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، 1982.
- عكاشة، رائد، الفلسفة في الفكر الإسلامي: قراءة منهجية ومعرفية، طبع المعهد العالمي للفكر الإسلامي – واشنطن، 2012.

- الميلاد، زكي، محمد إقبال وتجديد الفكر الديني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإنساني، بيروت، 2007.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، كتاب شرف أصحاب الحديث، دار إحياء السنة النبوية، أنقرة، 1988.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، متن القصيدة النونية، ط مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- الأعظمي، محمد حسن، شكوى وجواب شكوى أشهر، دواوين إقبال المترجمة للعربية، طبع في الدار العلمية، بيروت، 1972.
- سرور، طه عبد الباقي، الحلاج: شهيد التصوف الإسلامي، طبع دار ناشرون، القاهرة.
- ابن الكربوس التوزري، عبد الملك، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، دار الكتب العليمة، بيروت، 1971.
- حنفي، حسن، إقبال فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009.
- أبو غزالة، حازم طاهر، الدرر الغزالية شرح الحكم العطائية، ليس على الكتاب اسم ناشر.
- عبد الفتاح، علي، ديوان ابن الفارض، نشر وكالة الصحافة العربية، القاهرة، 2013.
- كريسون، أندريه، فولتير، الناشر دار عويدات، الأردن، 1984.
- الششتري، نور الله، إحقاق الحق وإزهاق الباطل، دار النعمان، بغداد، 1988.
- إبراهيم، سميح عبد الحميد، الأدب الأوردي الإسلامي، طبع جامعة محمد بن سعود، 2002.
- عيون السود، باسل، ديوان الحلاج، طبع دار الكتب العلمية، بيروت.

المجلات

- مجلة الوعي الإسلامية، العدد 580، 2014.
- مجلة التقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، كانون الثاني/ يناير 2002.
- مجلة الرسالة، العدد 257، 1938.
- مجلة البديل المصرية، 2013/2/9.
- مجلة الدوحة القطرية، عدد خاص عن إقبال، حزيران/ يونيو 2014.
- مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد 84.
- صحيفة الحياة اللندنية، 2016/2/5.
- مجلة الثورة السورية، 13 كانون الثاني/ يناير 2005.

1

أيهـــا الصـــادق أشواقـــك فـــي غـــارك العـــالي شـــفاء للقلـــوب
كنـــت تلقيهـــا علـــى جـــنح الـــدجى *** وتلقاهـــا علـــى جـــنح الغيـــوب

أيهـــا الشـــاهد مـــا للمســـتقى صـــار ســـقيا مـــن دم مـــر وســـم
إن مـــاء المـــزن تريـــاق الحيـــاة *** ربمـــا يقتـــل حَبْطـــاً أو يُلِـــمّ